شرح
منظومة الحق

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م



شرح
منظومة الحق

د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين. والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه واستن بسُنَّته إلى يوم الدين. **أما بعد:**

فقد أتيح لي، بعون الله وفضله، المشاركة في يومٍ علميٍّ ضمن (دورة «بناء» الثالثة) المقامة في جامع الزهراء بمحافظة البكيرية عشية يوم الجمعة ٢٣/ ١١/ ١٤٣٢هـ، بشرح «منظومة الحق» لعلامة القصيم الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم قامت مجموعةٌ من الأخوات الكريمات، وفقهن الله، وعلى رأسهن طالبة العلم: (سارة بنت سعد الصميل)، بتفريغ المادة الصوتية، وعرضها علي، فقمت بمراجعتها، وتنقيحها، وتهيئتها للنشر، طمعًا في عموم الفائدة. فجزى الله خيرًا من أسهم في إخراج هذا العمل العلمي، ونشره، وجعله خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه

د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي

عنيزة

في: ١/١١/١٤٣٦هـ



منهج الحق
منظومة في العقيدة والأخلاق

١ ـ فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْـحَقِّ يَبْتَغِي   سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ

٢ ـ تأَمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مَا قَدْ نَظَمْتُهُ   تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ

٣ ـ نُـقِـرُّ بِـأَنَّ الـلـهَ لَا رَبَّ غَـيْـرُهُ   إِلَـٰهٌ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُمجَّدُ

٤ ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي   نُخَصِّصُهُ بِالحُبِّ ذُلّاً وَنُفْرِدُ

٥ ـ فلِلَّهِ كُلُّ الْـحَمْدِ وَالْـمَجْدِ وَالثَّنَا   فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلٌّ إِلَى اللهِ يَقْصِدُ

٦ ـ تُسبِّحهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَا   وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ

٧ ـ تَـنَـزَّهَ عَـنْ نِـدٍّ وَكُـفْءٍ مُـمَـاثِـلٍ   وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْـمُوَحَّدُ

٨ ـ وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا   وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٩ ـ فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ   فسَلِّمْ لِـمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ

١٠ ـ هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعِظْمِ صِفَاتِهِ   وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ للهِ يَصْمُدُ

١١ ـ عَـلِـيٌّ عَـلَا ذَاتًـا وَقَـدْرًا وَقَـهْـرُهُ   قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِـالْوَرَى مُتَوَدِّدُ

١٢ ـ هُوَ الْحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الْجُودِ وَالْغِنَى   وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ للهِ تُسْنَدُ

١٣ ـ أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً   وَبِـرًّا وَإِحْـسَـانًـا فَـإِيَّـاهُ نَـعْـبُـدُ

١٤ ـ وَيُبْـصِـرُ ذَرَّاتِ الْعَـوَالِـمِ كُـلَّـهَا   وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ

١٥ ـ لَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْمُحِيطُ بِمُلْكِهِ   وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ
١٦ ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى   كَمَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالحَقِّ أَحْمَدُ
١٧ ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسْلَهُ   بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ
١٨ ـ وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ   بِحِكْمَتِهِ جَلَّ العَظِيمُ الْمُوَحَّدُ
١٩ ـ فَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَا   نَبِيُّ الهُدَى وَالعَالَمِينَ مُحَمَّدُ
٢٠ ـ وَخَصَّ لَهُ الرَّحمٰنُ أَصْحَابَهُ الأُلَى   أَقَامُوا الْهُدَى وَالدِّينَ حَقًّا وَمَهَّدُوا
٢١ ـ فَحُبُّ جَمِيعِ الآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا   مَعَاشِرَ أَهْلِ الْحَقِّ فَرْضٌ مُؤَكَّدُ
٢٢ ـ وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ   هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدُ
٢٣ ـ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِخَلْقِهِ   بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللهِ إِذْ هُوَ أَمْجَدُ
٢٤ ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ   بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ
٢٥ ـ وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ   مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ
٢٦ ـ وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى   وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا وَيَفْسُدُ
٢٧ ـ نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا   وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ
٢٨ ـ تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ   مَمَالِكُهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ
٢٩ ـ أَلَمْ تَرَ هذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا   فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ
٣٠ ـ تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا   كَوَاكِبُهَا وَقَّادَةٌ تَتَرَدَّدُ
٣١ ـ أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ   حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدُ
٣٢ ـ بَلَى وَالَّذِي بِالحقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا   وَأَوْدَعَهَا الأَسْرَارَ للهِ تَشْهَدُ
٣٣ ـ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ مُوقِنًا   وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٣٤ـ وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ بِهَا يُعْرَفُ اللهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ

٣٥ـ لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ

٣٦ـ فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ

٣٧ـ عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ وَتَجْتَنِبُ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

٣٨ـ وَكُنْ مُخْلِصًا للهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

٣٩ـ تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحمٰنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

٤٠ـ تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَّكَ تَسْعَدُ

٤١ـ وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ

٤٢ـ وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

٤٣ـ وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

٤٤ـ وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

٤٥ـ وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

٤٦ـ خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

٤٧ـ تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ

٤٨ـ وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

٤٩ـ وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ

٥٠ـ فَذِكْرُ إِلٰهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

٥١ـ وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيًا وَآجِلًا وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ

٥٢ـ فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

٥٣ ـ وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلٰـهَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ
٥٤ ـ وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّـرَائِعِ يَجْهَدُ
٥٥ ـ بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هٰذِهِ تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ
٥٦ ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ
٥٧ ـ وَأَخْبَـرَ أَنَّ اللـهَ يَـذْكُـرُ عَـبْـدَهُ وَمَعْهُ عَـلَى كُـلِّ الْأُمُـورِ يُسَـدِّدُ
٥٨ ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا
٥٩ ـ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَـهِ وَمُرْشِدُ
٦٠ ـ وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ
٦١ ـ لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ نِعْمَ المُوَحَّدُ
٦٢ ـ وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلْإِلَـهِ التَّعَبُّدُ
٦٣ ـ وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ دَائِمًا فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ
٦٤ ـ وَصَلِّ إِلٰهِي مَعْ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ
٦٥ ـ وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيَخْلُدُ

تَمَّت

شرح
منظومة الحق

د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

أفلحت الوجوه! وجوه طلبة العلم. هنيئًا لكم، وأبشروا وأملوا ما يسركم معشر طلبة العلم فإن من عاجل بشرى المؤمن أن يستعمله الله تعالى في محابه ومراضيه. فها أنتم تأنسون بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ وتطلبون العلم؛ تنقلون الخطى، وتُسوِّدون الصفحات طلبًا لاستنارة قلوبكم وعقولكم. فهنيئًا لكم ما قصدتم، وما عند الله خير وأبقى، في هذا المساء السعيد، أيها الكرام، ويا أيتها الكريمات ومن بلغ، يجتمع شرف الزمان وشرف المكان وشرف العمل، فأما شرف الزمان:

فهذا مساء يوم الجمعة وفيه ساعة ترجى، وأما شرف المكان: فهذا بيت من بيوت الله مأوى ملائكة الرحمٰن، وأما شرف العمل: فهو ما نشتغل به من المذاكرة وطلب العلم فنحمد الله سبحانه وتعالى على ما هدى ووفق..

في هذه العشية السعيدة عشية يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة من عام اثنين وثلاثين بعد الأربع مائة والألف من الهجرة النبوية الشريفة نفترع متن هذه المنظومة المفيدة التي سطرها بنان علامة القصيم الشيخ، الإمام، المفسر، المحقق، المدقق، الفقيه: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي عليه رحمة الله المولود في عنيزة سنة ١٣٠٧هـ والمتوفى سنة ١٣٧٦هـ كانت حياته حافلةً بالعلم والإيمان والتصنيف والتعليم والخطابة، كان نَفَسُهُ نَفَسًا إيمانيًا، وكان خلقه دمِثًا رضيًا. يعرف ذلك من عاشره، بل إن من يقرأ كتبه ورسائله يجد محبة وانجذابًا إلى شخصية الشيخ وتعلقًا به، فكأنما أنت مع ابن القيم رحمه الله في هدوء نفسه وسلاسة عباراته. فلم يقع الشيخ في تعقيد المتكلمين حينما يتحدث في مسائل العقائد، ولم يضق بحرفية الفقهاء عند التكلم في مسائل الفقه، بل كان رحمه الله يتكلم بطمأنينة وسعة أُفق، وذلك لما آتاه الله تعالى من القوى العلمية والعملية والخلقية، فرحِمَهُ الله رحمةً واسعة على ما أسدى لهذه الأمة من المؤلفات النافعة[(١)].

---

(١) انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون: روضة الناظرين ومقدمة تحقيقي لـ: (رسالتان في أحاديث الرجال وفتنة يأجوج ومأجوج).

وبين أيدينا منظومةٌ نظمها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل العقيدة والأخلاق، وهو مسلك يميز الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كثيرًا ما يربط بين الإيمان والعمل، فلا يقتصر على الجُمل العقدية الخالصة بل يقرنها بما ينبغي أن يترتب عليها من السلوك وهذا ظاهر بيّن في عدد من مؤلفاته، كما في «نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق والآداب»، بل إنه إذا تعرض لشرح حديث كما في «بهجة قلوب الأبرار» تجده يتناول الحديث من الناحية الحديثية والفقهية، ومن جوانب الرقائق والسلوك والآداب، كصنيع ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يصنع. والعجيب أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بكثير من مشاريعه العلمية الكبرى في مستهل شبابه، فتفسيره (تيسير الكريم الرحمٰن)، الذي بلغ الآفاق ابتدأ به في العقد الثالث من عمره! وهذه المنظومة التي بين أيدِينا ابتدأها وهو ابن ستٍ وعشرين سنة، فإنه قد وُجِد في بعض نسخها أنها أُرِّخت سنة ١٣٣٣ للهجرة. وهي تبلغ خمسة وستين بيتًا، سنشرحها شرحًا وسيطًا من غير تطويل ممل ولا اختصارٍ مُخِل.



قال الناظم:

١ ـ فيا سائلًا عن منهج الحق يبتغي سلوك طريق القوم حقًا ويسعد

٢ ـ تأمّل هداك اللّه ما قد نظمته تأمُّلَ من قد كان للحق يقصد

يتوجه الناظم بنداءٍ لسائلٍ حقيقي، أو سائلٍ مفترض، ينشُدُ بصدقٍ، السير على طريق أهل الفلاح؛ لينال السعادة فيخاطبه داعيًا له بالهداية:

(تأمل هداك الله): ينبغي للمعلم أن يتحبب إلى طلابه، وللمؤلف أن يتحبب إلى قرائه بالدعاء لهم، كقول النبي ﷺ لابن عباس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» رواه البخاري[١].

وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول لطلاب العلم: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ: كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم»[٢].

وقال النووي: (يستحب للمعلم أن يرفق بالطالب ويحسن إليه ما أمكنه)[٣].

وقال ابن القيم: (إن النبي ﷺ أوصى بطلبة العلم خيرًا

---

(١) صحيح البخاري (١٤٣).

(٢) المستدرك للحاكم (٢٩٨) وقال: هذا حديث صحيح ثابت. تعليق الذهبي قي التلخيص: على شرط مسلم ولا علة.
وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٠).

(٣) المجموع (١/ ٢٧).

وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرف)[١].

وكثيرًا ما تجد العلماء رحمهم الله يقولون: (اعلم رحمك الله)، ولما كان المقام مقام اهتداء، ناسب أن يدعو له بالهداية، لا سيما والسائل جاء يبتغي سلوك طريق القوم، فهو يدعوه للنظر والتفكر فيما نظم من جوابٍ آتٍ نَظَرَ الطالبِ للحقِّ لينال مقصوده.

(تأمُّلَ من قد كان للحق يقصد)؛ أي: تأمل حال قاصد الحق. ولا يتحقق للسائل الظفر بمطلوبه إلا بثلاثة شروط:

أحدها: التجرد والإخلاص في إرادة الحق، وهذا يتعلق بالنية التي محلها القلب.

الثاني: حُسْنُ الإصغاء، وهذا يتعلق بالأُذن الواعية.

الثالث: الفهم وصفاء الذهن، وهذا محله العقل.

وقد جمع الله ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيم: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

أحدها: أن يكون له قلب حي واع فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٦)، دار الكتب العلمية.

الثاني: أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلِم له وهو الشهيد؛ أي: الحاضر غير الغائب فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب[١].

فإن اختل شرط من هذه الشروط لم يصل إلى مقصوده، أو انتُقِصَ من مقصوده.

فسوء القصد؛ يورث الزيغ كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧]. فهذا لاختلال الشرط الأول.

وأما فساد الآلة من السمع والعقل؛ فإنه يورث الضلالة كما قال ربنا: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فلما كانت هذه الآلات عندهم فاسدة الإدراك لم تنفعهم بشيء.

لهم قلوب لكن لا يفقهون بها، ولهم أعين لكن لا يبصرون بها، ولهم آذان لكن لا يسمعون بها.

والخلل الأول، الذي هو فساد القصد يغلب على اليهود،

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٣١).

والثاني يغلب على النصارى، ذلك أن اليهود في طبعهم كِبرٌ وحسَدٌ وسوءُ طوية وخُبثُ نية، وأما النصارى ففيهم ضلال، ولذلك من زاغ من أهل البدع والأهواء من هذه الأمة ففيه شبه باليهود، ومن ضل من العباد والنساك من المتصوفة ففيه شبه بالنصارى.

ثم **قال الناظم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣ـ نُقرُ بأن اللَّه لا رب غيره   إلٰهٌ على العرشِ العظيم مُمَجدُ

استهل الناظم عقيدته بإثبات ربوبية الله وألوهيته وصفاته وتوحيده بها.

واعلموا أن التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيدُ الألوهية، وتوحيدُ الأسماء والصفات.

وبعض العلماء يقسم التوحيد إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب.

ولا تعارض بين التقسيم الثنائي والثلاثي. فإن هذه تقسيمات فنية، المقصودُ بها تقريب العلم، وذلك أن توحيد المعرفة والإثبات، هو التوحيد العلمي، ويشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وأما توحيد القصد والطلب فهو التوحيد العملي وهو توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية، فلا تعارض بحمد الله.

ومدار الربوبية على ثلاثة أمور: الخلق، والمِلْك،

والتدبير. وبقية صفات الربوبية ترجع إلى هذه الثلاث، فإنزال المطر وإحياء الموتى والصحة والمرض والغنى والفقر كلها ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة، فالواجب في هذا المقام أمران:

أحدهما: إثبات هذه الأوصاف له تعالى على وجه الكمال.

الأمر الثاني: إفراده بها.

فتوحيد الربوبية يُعَرَّفُ بأنه: توحيد الله بأفعاله، من الخلق والرزق والتدبير، كالإحياء والإماته وإنزال المطر وإنبات الأرض وإدرار الضرع إلى آخره.

وحقيقته: الاعتقاد الجازم بأن الله هو الخالق لا خالق سواه، وأنه المالك لا مالك سواه، وأنه المدبر لا مدبر سواه.

فلو قال قائل: أليس الله قد أثبت خالقِين فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]؟

فيجاب عن ذلك: بأن الخلق يطلق ويراد به أحد أمرين:

الأول: بمعنى الإنشاء من العدم، وهذا مختص بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢] وغيرها من الآيات.

الثاني: بمعنى التقدير والتصوير وهذا يوصف به المخلوقون.

وهو المقصود في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]. فهذا الخلق الذي أثبته الله لغيره ليس المراد به الإنشاء من العدم.

لذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وبهذا الاعتبار صح إطلاق خالق على العبد في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ أي: أحسن المصورين والمقدرين)[(١)].

والعرب تقول: والخَلْق: التقدير، وخلَق الأَدِيمَ يَخْلُقه خَلْقًا قدَّره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مَزادةً أَو قِربة أَو خُفًّا[(٢)].

ومنه قول الشاعر:

ولأَنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

قال ابن القيم: (أي لك قدرة تمضي وتنفذ بها ما قدرته في نفسك، وغيرك يقدر أشياء وهو عاجز عن إنفاذها

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (٢/ ٧٩٤)، دار الصميعي.
(٢) لسان العرب، مادة: (خلق)، انظر: الصحاح، مادة: (خلق).

وإمضائها)[١].

وعن مجاهد: قال: (يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين)[٢].

فالمراد به التشكيل والتصوير. كأن يأتي نجار إلى جذع شجرة فيقطعها، ويهذبها، ويصنع منها منضدة أو خزانة أو منبرًا، فهذا تشكيل، وليس خلقًا فلا يُنشِئ من العدم إلا الله ﷻ.

قال القرطبي: (ولا تنفى اللفظة عن البشر [الخلق] في معنى الصنع، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم)[٣].

ولو قال قائل: أليس الله قد أثبت الملك لغيره فقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ﴾ [النساء: ٣]، وقال سبحانه: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] وهذه لام التمليك؟

فالجواب أن يقال: إن كل ملك أضافه الله تعالى إلى غيره، فهو ملك نسبي محدود مؤقت، فالإنسان يملك لفترة ثم يموت ويرِثهُ الوارثون، كما أن ملك الإنسان ليس شاملًا عامًا كملك الله المُحيطِ بكل شيء، كما أن مِلكَ الإنسانِ أيضًا ليس

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (٢/ ٧٩٤)، ط. دار الصميعي.
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٥)، عالم الكتب.
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٢١)، مؤسسة الرسالة.

مطلقًا فلو هَمّ إنسانٌ أن يُتلِفَ ماله لحُجِرَ عليه، وضُرِبَ على يده، وقيل أنتَ سفيه. فمِلكُ الإنسان مِلكٌ نسبي.

ولو قال قائل: أليس الله قد أثبت تدبيرًا ومشيئةً لِغيره، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فكيف يتفق ذلك مع توحيد الله بالتدبير؟

فالجوابُ أن يُقال: إن تدبير المخلوق محكوم بتدبير الله ﷻ، ولذا قال ربنا ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فالعبدُ يشاء، والربُ يشاء، ولا يكون إلا ما يشاء الله.

قال ابن كثير رحمه الله: (أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ﷻ ربِّ العالمين)[١].

وقال البغوي: (أي: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله، وفيه إعلام أن أحدًا لا يعمل خيرًا إلا بتوفيق الله ولا شرًّا إلا بخذلانه)[٢].

فتبين بذلك أن الله سبحانه وتعالى هو المتوحِّد بجميع هذه الأمور الثلاثة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٤٠)، ط. دار طيبة.

(٢) تفسير البغوي (٥/ ٢١٨)، ط. إحياء التراث العربي.

واعلموا أن توحيد الربوبية قد توافرت الأدلة على إثباته، فقد دلت عليه الفطرة والعقل والحس والشرع.

والفطرة هي: ما ركبه الله تعالى في نفوس الآدميين من غير سبق تعليم. قال ربنا ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، قال ابن كثير رحمه الله: (أي: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إلٰه غيره)[(١)].

قال مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: الدين الإسلام ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قال: لدين الله[(٢)].

وعن الضحاك في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: (دين الله الذي فطر خلقه عليه)[(٣)].

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١٣).
(٢) الدر المنثور (١١/ ٥٩٨)، ط. دار هجر.
(٣) نفس المصدر السابق.

هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» متفق عليه[(١)]؛ أي: أن الإنسان يُخلَقُ كامِلًا سويًّا مُقِرًّا بربه ﷻ، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه بعده هذه الآية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وفي الحديث قال الله ﷻ: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**» رواه مسلم[(٢)].

فكل مخلوق حتى البهائم قد رُكِزَ في فطرته الإقرار بربوبية ﷻ.

الدليل الثاني: المحسوس المشاهَد المدرَك بالحواس الإنسانية من السمع والبصر وغيره، من وجود المخلوقات، وإجابة الدعوات، وتصريف الكائنات، وما أيد الله به الأنبياء من الآيات والمعجزات، أدركها الناس بأسماعهم وأبصارهم.

وجود المخلوقات يدل على وجود خالقٍ لها، وإجابة الدعوات تدلُ على وجودِ وربوبية المجيب، فلمّا قال نوح عليه السلام: ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠﴾ [القمر: ١٠] أربع كلمات، ماذا جرى؟ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٥)، صحيح مسلم (٢٦٥٨).
(٢) صحيح مسلم (٧٣٨٦).

أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١١ ـ ١٣].

فهذا يدل على وجودِ وربُوبية من دعاه. وهكذا في بقية آيات الأنبياء؛ فعن أنس بن مالك أَصَابَتْ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ فَادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَفِي الْغَدِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى فَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ فَادْعُ اللهَ لَنَا فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**» قَالَ: فَمَا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِن السَّمَاءِ إِلَّا تَفَرَّجَتْ حَتَّى صَارَتْ الْمَدِينَةُ فِي مِثْلِ الْجَوْبَةِ حَتَّى سَالَ الْوَادِي وَادِي قَنَاةَ شَهْرًا. متفق عليه)(١).

فهذا يدل على وجودِ وربوبية من دعاه، وأنه سبحانه وتعالى الخالقُ المالكُ المدبر، ولهذا أنشد أبو العتاهية رحمه الله أبياتًا يقول فيها:

فيا عجبًا كيف يُعصَى الإلٰه   أم كيف يَجحدُه الجاحدُ

(١) صحيح البخاري (١٠٣٣)، صحيح مسلم (٨٩٧).

وللَّه في كُلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبدًا شاهِدُ
وفي كُلِّ شيء له آيةٌ تدلُ على أنهُ واحِدُ

لو أن الإنسانَ سرّحَ طَرْفَه وأعملَ عقله؛ لوجد في هذه الكائنات والمحسُوسات ما يملأُ قلبه يقينًا بربُوبية الله؛ ابتداءً من هذه البصمة التي لا يُشَابِهها بصمة، مرورًا بجميع ما أودع اللهُ بدنه من الأعضاء إنتهاءً بقبةِ السماء العالية وما فيها من الأجرام والأفلاك وحركاتِها، كل ذلك شواهدُ حسية تدل على ربُوبية الله تعالى.

الثالث: **العقل الصريح** وهو: السالِمُ من الشهوات والشبهات. لأن العقل آلة، والآلة قد يعتريها آفة، أما العقل الصريح السالِمُ من الشهوات والشبهات فإنهُ يهتدي إلى أن هذا الكون لا بد له من موجِد، وأنه لا يُمكِن أن يُوجِد نفسَه بنفسِه ولا أن يُوجَد صُدفة، وقد جمع الله ذلك في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

قال ابن القيم: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق، وأفصح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانًا وقصورًا وعمارات محكمة لم يخالجه شك ولا ريب أن صانعًا صنعها وبانيًا بناها.

ثم قال: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا خالقًا لنفسه فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعًا، ولا ظفرًا، ولا شعرة، كيف يكون خالقًا لنفسه في حال عدمه»[(١)].

وكان جبير بن مُطعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حادثة فداء أسرى بدر، قد سَمِع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور حتى بلغ هـذه الآيـة: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، قال: كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي. رواه البخاري[(٢)].

فلو تأملت هذه الآية لوجدتها ناسفةً لمذاهب القائلين بالصُّدفة والقائلين بالطبيعة ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾؟ لا يُمكِن أن يُخلَقوا صُدفةً من غير شيء لأن العدم لا يُنشِئ وجودًا ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾؟ لا يُمكِن أن يَخلقوا أنفُسَهم بأنفُسِهم؟ هذا مُمتنِع لأن الشيء لا ينشئ نفسه. وهل الطبيعة إلا مجموع المخلوقات؟!

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٣)، ط. العاصمة.
(٢) صحيح البخاري (٤٨٥٤).

الرابع: النقلُ الصحيح.

فالقرآن العظيم، والسُّنَّة الصحيحة مليئان بدلائل الربوبية المستمدة من النفس والآفاق، وسيأتي في ثنايا هذه المنظومة بيانٌ وتأملٌ في النفسِ والآفاق مما أطلق الشيخ فيه فكره وتدبره.

ولما كان هذا النوع ـ أعني: توحيدَ الربُوبية ـ مركوزًا في الفِطَر، مشهودًا بالحس، مسلمًا بالعقول، لم يُنكِرهُ أحد من البشر سوى أفرادٌ شواذ على مر التاريخ، مِثلُ فرعون والنمرود ومن سار على شاكلتِهم من الملاحِدة كالشيوعيين وغيرهم، مع اعترافهم في قرارة نفُوسهم بربوبية الله. والدليل قول الله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قال ابن القيم: (والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق)[١]، وتأمَّل قول موسى عليه السلام لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، كأنما يُبصِرُ ما في قلبه ويقرؤه!

قال شيخ الإسلام: (لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠] قال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١] فوصفه بالمعصية، ولم يصفه بعدم العلم في الباطن

(١) الصلاة وأحكام تاركها (ص٥٠)، مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة.

كما قال: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٦]، وكما قال عن إبليس: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٧٣]، فلم يصفه إلا بالإباء والاستكبار ومعارضته الأمر، لم يصفه بعدم العلم)(١).

فعموم بني آدم لم يُنازِعوا في إثبات توحيد الربوبية، فإن الله تعالى قد حكى عن مشركي العرب الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

والناظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار التعريفُ بالربّ بأحدِ الأوصاف الفخمة الجليلة المناسِبة لمعنى الربُوبية وهو علوه على المربوبين، واستوائه على العرش المجيد، لما يحمِلهُ هذا الوصف من معاني الإحاطة. فإن الربّ من شأنِهِ أن يكون عليًّا على خلقه، مُستَويًا على عرشِه، فإن هذا من كمال ربُوبيته ومن مقتضياتها، وسيأتي إن شاء الله لذكر العلو والاستواء مزيدُ بيان في كلام الناظم ثم قال:

(١) الإيمان (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١)، المكتب الإسلامي.

٤ ـ ونشهدُ أن الله معبُودُنا الذي نُخصِّصُهُ بالحُبِّ ذُلًّا ونُفرِدُ

ثنّى الناظِمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر النوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو: توحيد الألوهية، ويُسمَّى أيضًا توحيدُ العبادة وهو التوحيد العمَلي.

وتعريفه: الاعتقادُ الجازِمِ بأن الله هو المُستحِقُّ للعبادة وحده دون ما سِواه، وإفراده بها.

والألوهيةُ: من التأله وهو الانجذاب والتعلُّق والرغبة، فالإلٰه: هو الذي تألهُهُ القلوب محبةً وتعظيمًا.

قال ابن القيم: (الإلٰه هو الذي تألهه القلوب محبة، وإنابة، وإجلالًا، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا)[1].

وقال ابن رجب: الإلٰه: (هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبة له، وإجلالًا، ومحبة، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منهِ ودعاء له)[2].

والعبادةُ في اللغة: بمعنى الطاعة مع الخُضوع والذل. تقولُ العرب: بعيرٌ مُعَبَّد؛ أي: مُذلَلٌ مُنقَاد غير شَمُوسٍ ولا طمُوح ولا جَمُوح. وتقولُ أيضًا: طريقٌ مُعبَّد، إذا كان مذللًا بكثرة الوطءِ أي: مُذللٌ مهيأٌ للسير عليه ليس بعسرٍ ولا وعر[3].

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٧)، دار المعرفة بيروت.
(٢) كلمة الإخلاص (ص١٣).
(٣) انظر: لسان العرب، تاج العروس، مادة: (عبد) (٣/ ٢٧٣).

والعُلمَاءُ يُعرِّفون العبادة بتعريفين، أحدُهما: يتعلق بحقيقتِها وذاتِها، والثاني: بآحادها وأنواعها.

فأما الأول فبآعتبار المتعبد له: فهي كمال الذُل مع كمال الحُب. وعليه يدِلُ قول الناظم:

ونشهدُ أن اللَّه معبُودُنا الذي نُخصِّصُهُ بالحُبِّ ذُلًّا ونُفرِدُ

فجمع بين الحُبِّ والذُل، واجتِماع هذين الأمرين لا ينبغي إلا لله ﷻ.

وأما التعريفُ الثاني فهو باعتبارِ المُتعبَّدِ به، وأحسنُ تعريفٍ له، ما عرَّفه به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال: اسمٌ جامع لِكُلِ ما يُحبُّهُ الله ويرضَاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطِنة[(١)].

فلذلك يشمل: العِبادات القلبية، وأشرَفُها: الحُب والخوف والرجاء. هذه أمهات العبادات القلبية.

ويشمل العبادات العملية، وأشرفُها: الصلاةُ والنحر ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]، ويشمل العبادات القولية ـ أي: اللسانية ـ، وأشرفُها: الذكر ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومن الذِّكرِ بل هو أفضلُ الذِكر: قراءة القرآن. ومن أشرفُها أيضًا: الدعوة إلى الله، لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

ويشمل العبادات المالية، وأشرفُها: الزكاة والنفقات.

ويشمل العبادات البدنية، وأشرفُها: الصوم والحج. والبدنية والعملية قد تتداخلان.

والمقصُودُ أن العبادة بما عرفناها به تنتظم جميع أمور الحياة فلا يخرج شيء عن العبادة للموَفَّق ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فهذا النوع من التوحيد هو أساس دعوة المُرسَلين وهو مُعتَرك النِزاع بين الأنبياء وبين المشركين، فما من نبي إلا بَادَأ قومه بهذه العبارة ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. قالها نوح، وقالها هود، وقالها صالح، وقالها شُعيب، عليهم السلام وقالها جميع أنبياء الله عز وجل، بل قال الله تعالى عن جميعهم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقالها محمد ﷺ، فإن نبينا ﷺ كان يأمرهم أن يقولوا: لا إلٰه إلا الله.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كي يمنعه وشكوه إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: **إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم العرب وتؤدي لهم العجم الجزية** قال: كلمة واحدة؟ قال **كلمة واحدة**. قال: **يا عم يقولوا لا إلٰه إلا الله**. فقالوا: (إلٰهًا واحدًا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) قال: فنزل

فيهم القرآن ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: ٧] رواه الترمذي(١).

هذه الكلمة الثقيلة، هذه الكلمة العظيمة يفوه بها الآن كثيرٌ من المسلمين ولا يُدرِكون حقيقة معناها، ويملؤون الجو بقول: (لا إلٰه إلا الله) وكثيرٌ منهم يقع في الشرك المنافي لمقتضاها.

كان العرب الأقحاح يُدرِكون ما معنى (لا إلٰه إلا الله)؛ وأنه: لا معبود بحقٍّ إلا الله، ومقتضى ذلك: أنه لا يصرف أي نوعٍ من أنواع العبادة لغير الله ﷻ. وهذا يقضي على جميع ما كانوا عليه من آثار الجاهلية، ومن امتيازاتهمُ الباطلة ومن تحاكمهم إلى غير الله ﷻ، ويجعل الأمر كله لله ﷻ. فلهذا كانت هذه الكلمة كلمةً فارقة، فالتوحيد أول الإسلامِ وأوسطه وآخره، وهو ما يجب أن يموت عليه الإنسان، فـ«من كان آخِرُ كلامِه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة» رواه أبو داود(٢).

ثم قال الناظم:

٥ ـ فللَّهِ كلُّ الحمدِ والمَجدِ والثَّنا   فمِن أجلِ ذا كلٌّ إلى اللَّه يقصدُ

(الحمدُ): هو ذِكرُ المحمود بالصفات الجميلة والأفعال

(١) سنن الترمذي (٣٢٣٢) واللفظ له، وقال: حديث حسن، النسائي في الكبرى (٨٧٦٩)، مسند أحمد (٢٠٠٨)، المستدرك للحاكم (٣٦١٧)، قال: حديث صحيح ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص.

(٢) سنن أبي داود (٣١١٨)، مسند أحمد (٢٢٠٣٤) صححه الألباني.

الحسنة مع المحبةِ والتعظيمِ والإجلال، وأما عُرفًا: فالحمدُ فعلٌ يُنبِئ عن تعظيم المُنعِم بسببِ كونه مُنعِمًا.

وبهذا يتبين الفرق بين الحمد والمدح؛ فالحمد يشترك مع المدح بِذكرِ الصفات الحسنة، والأفعال الجميلة، لكن إن اقترن به محبة وتعظيم فهو حمد، وإن خلا من المحبة والتعظيم فهو مدح مُجرد.

قال شيخ الإسلام: (الحمد: هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها. فلو أخبر مخبر بمحاسن غيره، من غير محبة لها، لم يكن حامدًا، ولو أحبها ولم يخبر بها، لم يكن حامدا)[١].

فقد يُمدح كافر بسبب بعض صفاته الحسنة؛ كالكرم، والشجاعة، أو الاختراع، أو غيرِ ذلك، لكن لا يكون حمدًا.

قال ابن القيم: (الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته. فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد. فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه)[٢].

وأما الشكر[٣]: فهو الثناء على المحسن بذكر إحسانه

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧٨). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ٩٣).
(٣) وفي معنى الشكر لغةً: معنى الزيادة، تقول: شكرت الأرض إذا كثر فيها النبات، وتقول: هذه دابة شكور إذا أظهرت من السِمن فوق ما تُعطى =

إليه، فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه[١].

قال ابن القيم: (وتكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضل.

وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»[٢].

والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه، وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون: بالقلب خضوعًا، واستكانة.

وباللسان ثناء، واعترافًا.

وبالجوارح طاعة، وانقيادًا.

= من العلف، فهو ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان. وفي حديث يأجوج ومأجوج: «وإن دواب الأرض تسمن وتشكر شكرًا من لحومهم» أي تسمن وتمتلئ شحمًا. انظر لسان العرب، مادة: (شكر)، ولهذا قيل في تعريفه هو الثناء (أي: تكرار الحمد).

(١) عدة الصابرين (ص١٤٨).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٩٥٧٤)، شعب الإيمان (٤٣٩٥)، بلفظ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده»، ضعفه الألباني لانقطاع السماع بين قتادة وابن عمر. قال الحاكم: «لم يسمع قتادة من صحابي غير أنس». انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة (١٣٧٢).

ومتعلقه: النعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال: شكرنا الله على حياته، وسمعه، وبصره، وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه، وعدله.

والشكر يكون على الإحسان، والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس. وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس؛ فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان)[(١)].

فكل حامد شاكر، وليس كل شاكر حامدًا.

قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيْرَ الْمُحَجَّبا

(المجد) المراد به: الكرم والعظمة والشرف، فكل هذه الأمور الثلاثة المستغرِقة لمعانيها، المستوفية لكمالاتِها مُستَحقة لله تعالى، وهذا سرُّ كونهِ صمدًا إذ أنه **قال:**

.... فمِن أجلِ ذا كلٌّ إلى اللَّه يقصدُ

(الثناء): إذا تكرر الحمد صار ثناءً. والدليل على ذلك الحديثُ القدسي حديثُ الفاتحة: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ**

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٦).

عَبْدِي» رواه مسلم[١]، وذلك أنه مأخوذ من ثني الثوب وهو ردٌّ بعضِهِ على بعض.

ثم **قال:**

٦ - تُسبِحه الأملاك والأرض والسما وَكُلُّ جميع الخلقِ حقًّا وتحمَدُ

التسبيحُ: هو التنزيه.

قال شيخ الإسلام: (تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعًا، فقول العبد: [سبحان الله] يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء. وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه)[٢].

والتسبيح جارٍ من جميع المخلوقات كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الصف: ١].

قال شيخ الإسلام: (وسبح إخبار عن ماض وآت، وإعلام لنا أن كل شيء يسبح بحمده، ويسجد لعظمته، ويعترف بألوهيته ووحدانيته)[٣].

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٤٤).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٥٠٥).

٧ـ تَنَزَّه عن نِدٍّ وكفءٍ مماثلٍ وعن وصفِ ذي النُّقصانِ جلَّ الموحَّدُ

يُنزَّه الرب تعالى عن ثلاثةِ أمور: عن النقصِ، والعيبِ، ومماثلةِ المخلُوقين، وقد نزَّه الله تعالى نفسه عن النِّد بقولِه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، ونزَّه نفسهُ عن الكُفء فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ونَزَّه نفسُهُ عن المُمَاثِل فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونَزَّه نفسَهُ عن وصفِ ذي النقصان بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فهذا مِصدَاقُ ما قرره النَاظِم.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨ـ ونُثبِتُ أخبار الصِفاتِ جَمِيعَهَا ونبرأُ من تأويلِ من كان يجحَدُ

هذا هو النوع الثالِث من أنواع التوحيد؛ وهو توحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماءِ والصفات هو: توحيدُ الله بأسمائه الحسنى وصِفاتِه العُلى، وذلك بإثباتِ ما أثبتهُ لنفسِه من أسماءِ الجلال، ونعوتِ الكمال، على وجهٍ لا يماثله أحدٌ من المخلوقين. بِهذا كان توحيدًا.

وليس التوحيد أن يُنفى عن الله أسماءه وصفاته، بل التوحيد: أن تُثبَت لله الأسماء والصفات على وجهٍ لا يُماثِلُه فيه أحد.

قال شيخ الإسلام: (يجب على الخلق أن يثبتوا ما أثبته الرسول لربه من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصون من التعطيل والتمثيل ويكونون على خير عقيدة في إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل)(١).

وقال أيضًا: (ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وقال نعيم بن حماد الخزاعي: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها. ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين: إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات؛ فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، ردٌّ على أهل التشبيه والتمثيل. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، ردٌّ على أهل النفي والتعطيل. فالممثل أعشى، والمعطل أعمى: الممثل يعبد صنمًا والمعطل يعبد عدمًا)(٢).

فطريقةُ أهلِ الحق في هذا الباب الذي وقع فيه النزاع بين

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٤٥٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٥ ـ ١٩٦).

أهلِ القبلة هو: الإثبات والإمرار مع الإقرار لجميعِ الأخبار الواردة في الكتاب العزيز، والسُّنَّة الصحيحة، دون تفريقٍ بين ما هو ذاتيٌّ أو فعليٌ أو خبريٌ أو معنوي، كما يفعل ذلك المُبعِّضون الذين جعلوا القرآن عِضِين من المُتكلِمين، بل يُساقُ القولُ فيها سوقًا واحدًا.

قال محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (اتفق الفُقَهاءُ كلّهُم من المشرِقِ إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفةِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ من غيرِ تفسيرٍ ولا وصفٍ ولا تشبيه)[١].

وحكى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتفاق الصحابة في مسائل الصفات، وقال: (إنهم لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسُّنَّة كلمة واحدةً، من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلًا، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلًا، ولم يبدوا لشيء منها إبطالًا، ولا ضربوا لها أمثالًا، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كُلِّهَا أمرًا واحدًا، وأجروها على سنن واحدٍ، ولم يفعلوا كما فعل أهل

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤).

الأهواء والبدع، حيث جعلوها عضين، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقانٍ مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكرُوهُ كاللازمِ فيما أقروا به وأثبتوه)[١].

فالواجِبُ على أهل الإيمان قبولِ خبرِ الله وخبرِ نبيه ﷺ؛ لأنه لا سبيل لنا إلى العلم بربِنا ﷻ إلا بِما أخبر به عن نفسه، وذلك أن الإنسان لا يتمكن من معرفة صفةِ شيءٍ من الأشياء إلا بإحدى ثلاث طُرق: إما برؤيته، أو برؤية نظيره، أو بخبرٍ صادقٍ عنه.

فالاحتمالُ الأول: ممتنع في الدنيا لأننا لا يمكن أن نرى ربنا كما قال نبينا ﷺ: «**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ**» رواه مسلم[٢].

الاحتمالُ الثاني: أشدُّ امتناعًا لأن الله لا نظير له، ولا نِدَّ له، حتى نَقيسَهُ عليه.

الاحتمالُ الثالث: وهو الخبرُ الصادق عنه، فحاصل؛ فقد أسعفنا الله تعالى بالخبر في كِتابه العزيز فسمَّى نفسَهُ بجملةٍ من الأسماء، ووصف نفسَهُ بجملةٍ من الأوصاف تعرَّفَ بها إلى عباده، وكذا نبيه ﷺ عَرَّفَ رَبَّهُ بأسمائه الحسنى وصفاتِهِ العُلى، فكان هذانِ الطريقان هُمَا الطرِيقان الوحيدان للعلمِ بالله ﷻ.

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٩).
(٢) صحيح مسلم (١٦٩).

.... ونبرأُ من تأويلِ من كان يجحَدُ

تبرأ الناظم من طريقةِ أهل التعطيل الجاحدين لصِفات الله، المُتسلِطين بأنواع التحريف الباطل، الَّذي يُسمونهُ تأويلًا، وذلك أن قومًا شَرِقوا بنصوص الصفات، فلم تستقِم مع مُقدِّماتِهم العقلية المنطقية التي تَلقوها عن اليونان، فأعملوا فيها معاول التأويل والتحريف، ولووا أعناق النصوص لتتفق مع مُقدِّماتِهم الفاسدة فضلُّوا وأضلُّوا.

فمنهج أهل الحق: وسطٌ بين طرفين، وعدلٌ بين عِوجين، وهدًى بين ضلالتين. فهم بين أهل التمثيل وأهل التعطيل؛ فأهل التمثيل: غلَوا في الإثبات حتى وقعوا في التمثيل.

وأهل التعطيل: غلَوا في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل.

وأما أهل السُّنَّة والجماعة: فأثبتوا إثباتًا بلا تمثيل، ونزهوا الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، فَسلِمُوا من الآفتين.

فَهذا هو مسلك الهُدى، ومنهج الحق في هذا الباب العظيم الشريف الخطير، وهو أن يكون الإنسان قابِلًا لخبرِ الله، وخبرِ رسوله ﷺ، مُتأدِبًا معه، لا يتعرض له بأي نوع من أنواع الجنايات؛ بتأويل باطل، وصرفٍ له عن ظاهِره، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى أعلمُ بنفسِه وبغيره، وأصدقُ قيلًا من خلقه، وأحسن حديثًا من غيره، وكذا نبيه ﷺ أعلمُ بربه، وأصدق الناس لهجة، وأحسنهم بيانًا، وأعظمُهم نُصحًا للأمة. فلما توفرت

جميع هذه الدواعي لقبول الخبر لم يكن بُدٌّ من قبول خبر الله ورسوله. فقد وُجِد العلم المنافي للجهل، والصدق المنافي للكذب، والبيان المنافي للفهاهة، والأمانة المنافية للغش والتدليس.

فكيف يأتي قومٌ في آخر الزمان، ويستدرِكون على الله وعلى رسوله ﷺ، ويقولون: ليس مُراد الله كذا، مُرادهُ كذا! قل أأنتم أعلم من الله؟! أأنتم أحسنُ من الله حديثًا؟! أأنتم أصدق من الله قيلا؟!

فلا يَتمُّ توحيد الله بأسمائه وصِفاته إلا بالقبول لها، والرِضا بها، واعتقادِها دالةً على، المَثلِ الأعلى الذي لا يشاركه فيه أحدٌ غيره، كما أنه سبحانه لم يُشارِكه أحدٌ في ربوبيته، ولا يَصِحُ أن يُشارِكه أحدٌ في أُلوهيَتِه، فكذلك في أسمائه وصِفاتِه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]

ثُمَّ أردف ذلك **بقوله:**

٩ ـ فليس يُطيقُ العَقْلُ كُنهَ صِفاتِهِ فسلِّمْ لِمَا قال الرَّسولُ مُحَمَّدُ

هذا البيت بمنزِلةِ التعليل للبراءةِ من طريقة أهل التأويل، كأن الشيخ أراد أن ينبه إلى العلة التي حَمَلت أهل التأويل على تحريفِ النصوص، وهي طلب إدراك الكيفيات فأعياهم ذلك، فلما عَجِزوا عن التمثيل، هربوا من التمثيل إلى التعطيل، وفروا من شرٍّ إلى شرٍّ مِثلِه، فالقوم مثلوا أولًا وعطلوا ثانيًا، ولو أنهم

علموا أن العقل لا يسعه ولا يُمكنه إدراك كُنهِ وحقيقةِ وكيفيةِ صِفاتِ الله، لكُفُوا وسَلِمُوا، لكنهم أَبَوا واستقبلوا هذه النصوص مُعمِلين فيها عقولَهم، فلما اصطدمت بالممتنع عقلًا هربوا منه إلى المحرم شرعًا.

وأما أهل الحق فإنهم عرفوا وظيفة العقل في هذا الباب وأنها إدراك المعاني فقط، لا إدراك الكيفيات. فكُل صفة من صِفات الله يتعلق بها ثلاثة أمور: لفظٌ دالٌّ عليها، ومعنى مُعبِّرٌ عنها، وكيفيةٌ هي عليه في الواقع.

فالأول: إثبات الألفاظ:

فنُثبِتُ الألفاظ كما جاءت في الكتابِ والسُّنَّة، ونعتقد أنها توقيفية. فنَقِفُ عند موراد النصوص، لا نزيد على ما جاء به الكِتاب والسُّنَّة.

قال الإمَامُ أَحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُوصفُ اللهُ إلَّا بمَا وصفَ به نَفسهُ، أو وصفهُ به رَسُولُهُ ﷺ لَا يَتَجاوزُ القُرآنَ وَالحدِيثَ»[١].

والأمر الثاني: المعنى:

فالله تعالى خاطبنا بلسانٍ عربيٍّ مبين، لم يُخاطِبنا بأحاجِي وألغاز وتلبيسات، بل خاطبنا بلغةٍ بينة، وأمرنا بتدبرها،

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٢).

فقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣][(١)]، فأمرنا بتعقُّلِه، ولا يُمكِنُ أن نتعقل إلا ما كان ممكن التعقل، فنحن نعلم معاني أسماء الله وصفاته، من حيث الوضع في اللغة العربية، فمثلًا نَعرِفُ أن السمع هو إدراك الأصوات، وأن البصر هو إدراك المُبصَرات، وأن القدرة هي التمكن من الفعل من غير عجز، وأن القوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف. كل هذا من المعاني التي ندركها بعقولنا من لغتنا. وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى من وجوه عدة[(٢)]:

١ ـ أن الصحابة تلقوا عن النبي ﷺ القرآن والسُّنَّة، وكانوا يتلقون عنه ما في ذلك من العلم والعمل، كما قال أبو عبد الرحمٰن السلمي: لقد حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد اللَّه بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا. وقد قام عبد اللَّه بن عمر ـ وهو من أصاغر الصحابة ـ في تعلم البقرة ثماني سنين. وإنما ذلك لأجل الفهم والمعرفة.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبين أنه أنزله عربيًّا لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه». مجموع الفتاوى (١٥٨/٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٥٦/٥ ـ ١٥٩) بتصرف.

٢ ـ أن العادة المطردة التي جبل الله عليها بني آدم، توجب اعتناء المسلمين بالقرآن ـ المنزل إليهم ـ لفظًا ومعنى، بل أن يكون اعتناؤهم بالمعنى أوكد، فإنه قد علم أنه من قرأ كتابًا في الطب أو الحساب، أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنه لا بد أن يكون راغبًا في فهمه، وتصور معانيه، فكيف بمن قرؤوا كتاب الله ـ تعالى ـ المنزل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عرفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟! فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات، بل إذا سمع المتعلم من العالم حديثًا فإنه يرغب في فهمه، فكيف بمن يسمعون كلام اللهِ.

بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ في تعريف معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريف حروفه، فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود؛ إذ اللفظ إنما يراد للمعنى.

٣ ـ أن الله سبحانه وتعالى قد حض على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ

ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. فإذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره، علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكنًا للمؤمنين، وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم.

٤ ـ أنه قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، فبين أنه أنزله عربيًّا لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه.

٥ ـ إنه ذم من لا يفهمه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦]. وقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضًا، لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به.

٦ ـ أنه ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ

أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦] وأمثال ذلك.

٧ ـ أن الصحابة رضي الله عنهم فسروا للتابعين القرآن، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية منه وأسأله عنها. ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكان ابن مسعود يقول: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته. وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله. والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها.

وهذه الوجوه تؤكد أن معاني الصفات واضحة جلية مدركة للأمة.

الأمر الثالث: الكيفية:

هذا هو الحِمى المنيع الَّذي لا يُمكِن لأحد أن يغشاه.

قال ابن القيم: «إن العقل قد يئس من تعرُّف كنه صفات الله وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله. وهذا معنى قول السلف (بلا كيف)؛ أي: بلا كيف يعقله البشر، فإنه من

لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك. كما أنّا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف كيفيتها مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعجزنا من معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم»(١).

وقال في الصواعق: (تأويل الكلام الطلبي هو نفس فعل المأمور به والمنهي عنه، كما قال ابن عيينة: السُّنَّة تأويل الأمر والنهي. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ**» يتأول القرآن) متفق عليه(٢)، وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر الله عنها، وذلك في حق الله هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»(٣)، وكذلك قال ابن الماجشون، والإمام أحمد، وغيرهما من السلف: «إنّا لا نعلم

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٩)، الكتاب العربي.
(٢) صحيح البخاري (٧٨٤)، صحيح مسلم (٤٨٤).
(٣) رواه البيهقي عن مالك وربيعة الرأي في الأسماء والصفات (ص٥١٥، ٥١٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (٣/ ٣٩٨)، قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى بعد ذكر قول مالك: «وهذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا، ولكن ليس في إسناده من يعتمد عليه». اهـ (٥/ ٣٦٥).

كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه، . . . وكذلك الصحابة والتابعون فسروا القرآن، وعلموا المراد بآيات الصفات، كما علموا المراد من آيات الأمر والنهي، وإن لم يعلموا الكيفية. كما علموا معاني ما أخبر الله به في الجنة والنار، وإن لم يعلموا حقيقة كنهه وكيفيته، فمن قال من السلف: إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله بهذا المعنى، فهو حق، وأما من قال: إن التأويل الذي هو تفسيره، وبيان المراد منه لا يعلمه إلا الله فهذا غلط، والصحابة والتابعون وجمهور الأمة على خلافه(١).

ولهذا لما دخل على الإمام مالك ـ إمام دار الهجرة رحمه الله ـ رجل، وقال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ أطرق برأسه ساعة، وعَلَتْهُ الرُّحَضَاء ـ يعني: تفصَّد عرقًا ـ لهول وقع السؤال عليه، وتعظيمه وإجلاله لربه أن يسأل أحد عن كيفية صِفاتِه، ثم رفع رأسه وقال أربع كلِمات، هي دستور لأهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب العظيم، قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وفي رواية: أنه قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وما أُراك إلا صاحِب بدعة، ثم أُمِر به فأُخرِج من المسجد(٢).

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٣ ـ ٩٢٤) باختصار.

(٢) الرد على الجهمية (للدارمي) (ص٦٦)، دار ابن الأثير بالكويت، شرح =

فقولهُ ـ رحِمه الله ـ: (الاستواء معلوم) أو (الاستواء غير مجهول) يعني: أن الاستواء معلومٌ معناه في لغة العرب، بمعنى علا، أليس الذي قال في سورة الزخرف عن الفُلك والأنعام: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، هو الذي قال سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فكيف يكون معناها هنا معلومًا، ومعناها هناك غير معلوم؟!.

(والكيف مجهول) أو (الكيف غير معقول) أي: أنه لا يُمكن لعقولنا القاصِرة أن تُدرِك كيفية الاستواء.

(والإيمان به واجب) لأنه يجب الإيمان بكل ما أخبر الله تعالى به، وأخبر به نبيه ﷺ. فيجب علينا أن نؤمن باستواء الله على عرشه، وأنه بمعنى علوه عليه عُلوًّا يليق بجلاله، وأن له كيفية لا يعلمُها إلا الله.

(والسؤال عنه بدعة)؛ يعني: السؤال عن الكيفية بدعة. لأن الصحابة الكرام ما كانوا يسألون عن الكيفيات. كانوا يؤمنون بالأخبار، وما دلت عليه من المعاني.

ولـمَّا دخل لقيط بن عامر بن الـمُنتفِق، والنبي ﷺ يَخطُبُ خطبة مطولة فقال في أثنائها: «**ينظرُ إليكم أزلين قانطين فيظلُ يضحك**»[1] قامَ فقال: يا رسول الله! أوَ

= أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (اللالكائي) (٣/ ٣٩٨)، دار طيبة.

(١) الفتاوى (٣/ ١٣٩)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٢٨).

يضحكُ ربُّنا؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم**»، قال: لن نعدِمَ خيرًا من ربٍ يضحك) رواه ابن ماجه[(١)]. فلم يقع في نفسه ما يقع في نفوس أهل التحريف، من أن إثبات الضحك يلزمُ مِنه أسنان ولسانٌ ولهوات. فقد التاثت عقولهم بلَوثَة التمثيل ففروا من التمثيل إلى التعطيل، ولو أنهم أجروا النصوص على وجهها ما وقعوا في هذا الغلط.

من تمام الكلام على هذه المسألة ذِكر قاعدة ثُلاثية مُفِيدة في هذا الباب العظيم؛ باب الأسماء والصِفات:

الواجِبُ علينا في الإثبات أمران:

أولًا: إثبات ما أثبت الربُّ لنفسه وما أثبته له نبيه ﷺ.

ثانيًا: الاحتراز من التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل.

الواجِب علينا في النفي أمران:

أولًا: نفيُ ما نفاه الله عن نفسِه أو نفاهُ عنهُ نبيه ﷺ.

ثانيًا: إثباتُ كمالِ ضد الصِّفة المنفية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالنفي لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوتًا، وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي السوء

---

(١) سنن ابن ماجه (١٨١)، مسند أحمد (١٦١٨٧)، وحسنه ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ١٣٩)، وحسنه الألباني هذا اللفظ «**ضحك ربنا ﷻ من قنوط عباده، وقرب غيره**»، فقال أبو رزين: أو يضحك الرب ﷻ؟ قال: «نعم»، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا. السلسلة الصحيحة (٢٨١٠).

والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى[١]. وقد نفى الله سبحانه عن نفسه جُملةً من صفات النقص مِثالُ ذلك: نفى الله عن نفسهِ الظُّلم فقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

فالواجِبُ **أولًا**: أن ننفي عن الله ما نفاه عن نفسه فننفي عن الله الظلم.

ثانيًا: نضُم إلى هذا النفي إثبات كمال ضد الصفة المنفية. وهو العدل، فنُثبِتُ لله كمال العدل لأن النفي المُجرَد لا يَدِلُ على الكمال حتى يتضمن إثباتَ كمال الضِد. مثال آخر: نفى الله عن نفسهِ الجهل، فقال: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، فننفي عن الله الجهل ونُثبِتُ له كمال العلم. وعلى ذلك قِسْ.

والواجِب علينا فيما لم يرد فيه نفيٌ ولا إثبات؟ أمران:

أولًا: التوقفُ في اللفظ.

ثانيًا: الاستفصال عن المعنى؛ فإن كان حقًّا قبِلناه، وإن كان باطِلًا رددناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: معلوم أن الألفاظ [نوعان]:

- لفظ ورد في الكتاب والسُّنَّة أو الإجماع، فهذا اللفظ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٠).

يجب القول بموجبه، سواء فهمنا معناه أو لم نفهمه؛ لأن الرسول ﷺ لا يقول إلا حقًّا، والأمة لا تجتمع على ضلالة.

- لفظ لم يرد به دليل شرعي، كهذه الألفاظ التي تنازع فيها أهل الكلام والفلسفة، هذا يقول: هو متحيز. وهذا يقول: ليس بمتحيز، وهذا يقول: هو في جهة، وهذا يقول: ليس هو في جهة. وهذا يقول: هو جسم أو جوهر. وهذا يقول: ليس بجسم ولا جوهر. فهذه الألفاظ ليس على أحد أن يقول فيها بنفي ولا إثبات حتى يستفسر المتكلم بذلك، فإن بين أنه أثبت حقًّا أثبته، وإن أثبت باطلًا رده، وإن نفي باطلًا نفاه، وإن نفي حقًّا لم ينفه، وكثير من هؤلاء يجمعون في هذه الأسماء بين الحق والباطل: في النفي والإثبات[١].

مِثالُ **ذلك**: لو قال قائل: هل يُوصَف الله تعالى بالأذن فالجواب: هذا اللفظ لم يرد في الكتابِ ولا في السُّنَّة لا بنفيٍ ولا إثبات فإن أثبته أخطأت، وإن نفيته أخطأت، فالواجب التوقف.

ثانيًا: نقولُ: ماذا أردت بقولك (أُذن؟) فإن قال: أقصد هل الله ﷻ متصف بصفة السمع؟ قلنا: نعم هذا صواب لكنك أخطأت في التعبير فاكتف بالقول أن الله سميعٌ ويسمع.

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

ثم قال المُصنِّف:

١٠ ـ هو الصَّمدُ العالي لِعِظمِ صِفاتِهِ وكلُّ جميعِ الخلقِ للَّه يصمُدُ

هذا شروعٌ من الناظِم في ذكر جملةٍ من مُفصَّل الأسماء الحُسنى والصفات العلى، وذلك أن توحيد الربوبية محلُ اتفاقٍ بين بني آدم، وتوحيد الألوهية هو مُعتركُ النِزاع وحلبةُ الصِّراع بين الأنبياءِ وأقوامهم. وأما توحيد الأسماء والصِّفات فقد وقعَ الخِلافُ فيه بين أهل القِبلة.

(الصَّمد): أثبته الله لنفسِهِ في سورة الإخلاص بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢].

والصَّمَد: هو السيد الشريف الذي بلغَ الغاية في شرفِهِ وسؤدَدِه، بحيث تصمُدُ إليه الخلائق في حاجاتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والاسم [الصَّمَدُ] فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة ـ وليست كذلك ـ بل كلها صواب، والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له. (هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة)[1].

(١) وهذا معروف عن ابن مسعود موقوفًا ومرفوعًا، وعن ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، والسدي، =

والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج. (قول طائفة من السلف والخلف، وجمهور اللغويين)(١).

وقولُ بعضِ المُفسرين في تفسير الصمد: الَّذي لا جوفَ له، سائغٌ لغةً، ومرادهم بذلك: كمال غناه، فلا يحتاج إلى ما يحتاجُ إليه المخلُوق من داخلٍ وخارج. فكلُ مخلوقٍ أجوف، فيهِ داخل وخارج، وذلك لحاجته وافتقارِه. أما الرب ﷻ فإنه كامل الغنى، فلذلك وصِف بالصَّمَدانية.

كما أثبت الناظِمُ أيضًا اسم الله (العلِيّ) قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وعبرَ عنه بالعالي. ومن الأسماء المُقارِبة: (الأعلى) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وهي ألفاظٌ متقاربة قال ربُنا ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وعلَّل علوَّ ذاتِه بعلوِّ صفاتِه قال: (العالي لِعِظم صِفاتِهِ).

وجعل ناتِجُ ذلك أن تشرئب إليه الأعناق، وتعنوا له الوجوه، وتهفوا إليه الأفئدة، في تحقيقِ حاجاتِها **فقال: (وكلُّ جميعِ الخلقِ لله يصمُدُ)**.

وعلو الله تعالى ثلاثة أنواع: علو قهر، وعلو قدر، وعلو ذات.

= وقتادة. مجموع الفتاوى (١٧/ ٢١٥).

(١) فهو مروي عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس. قال: الصمد: السيد الذي كمل في سؤدده. وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق بن سلمة، وعن أبي إسحاق الكوفي عن عكرمة، ويروى هذا عن علي، وعن كعب الأحبار. مجموع الفتاوى (١٧/ ٢١٦).

وهو ما عبَّر عنه المُصنِّف **بقوله:**

١١ ـ عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدرًا وقَهْرُهُ ....

النوع الأول: علَّو القهر. ومعناه: أن جميع المخلوقات خاضِعة لله، داخلةٌ تحت سُلطانِه وقهره[١]. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨].

النوعُ الثاني: علو القدر. ومعناه: أن صِفاته بلغت من الكمال أعلاه، فليس فيها نقصٌ بوجه من الوجوه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل: ٦٠] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: ٢٧]. المثلُ الأعلى هو: الوصفُ الأعلى.

وهذان النوعان لا يُنازِع فيهما أحد من أهل القبلة.

ولو نازع أحد في علو القهر فشك في قهر الله لخلقه، أو في علو القدر فوصف الله بالنُّقصان لخرج من دائرة الإسلام.

النوع الثالث: علو الذات. ومعناه: أن الله تعالى بذاته، فوق جميع مخلوقاته، مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه ـ أي: مُنفصِل ـ ليس فيه شيءٌ من خلقه، ولا في خلقهِ شيءٌ منه. كما يزعُمُ أهل الحلول والاتحاد والتجسُّد تعالى الله عمَّا يقولون عُلُوًّا عظيمًا.

---

(١) قال شيخ الإسلام: علو القهر مضمونه أنه قادر على العالم. درء تعارض العقل والنقل (٧/٦).

فهذا النوع الثالث هو الذي وقع فيه النِّزاع بين أهل القبلة، وقد توافرت أنواع الأدلة على إثباته. فدلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة والإجماع والعقل والفطرة، فجميع أنواع الأدلة الخمسة دلت على إثباته.

أمَّا الكِتابُ والسُّنَّة؛ فهما مليئان بأدلة إثبات علو الله، وبِطُرقٍ مُتنوِعة، حتى قال بعض عُلماء الشافعية: إن في القرآن العظيم أكثر من ألف دليل على إثبات علو لله[(١)].

فتارة يأتي بالاسم الصريح كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وتارة بذكر عُروجِ الأشياءِ إليه ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤] والعروج لا يكون إلا إلى أعلى، أو بصُعودها إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أو بالرفع إليه ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وتارة بذكر نزول الأشياء منه، وتارة بذكرِ الاستواء، أو بذكرِ كونه في السماء ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك: ١٦]. ونحوها من أنواع الأدلة في القرآن العظيم، والسُّنَّة على إثبات هذا الوصف العظيم.

فعن معاوية بن الحكم السلمي قال: (كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٢٦).

كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**». فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**») رواه مسلم[1].

وقد انعقد الإجماعُ أيضًا على إثبات علوِّ الله، كما قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: (كُنَّا والتابعون متوافرون نقولُ: إن الله تعالى مُستوٍ على عرشه، ونؤمن بما جاءت به السُّنَّة من الصِّفات)[2].

كما دلَّ عليه العقل؛ لأن العقل يقطع أن العُلُوَّ كمال، والسُّفل نقص، والله تعالى هو المُستحِقُّ للكمال المُطلق، وواهِب الكمال أولى بالكمال.

كذلك الفطرة دلت عليه؛ فالنفوسُ مفطورة على أن خالقها وبارئها ينبغي أن يكون في جهة العلو.

وقد استدل بهذا الدليل أبو جعفر الهمداني في مجلس لأبي المعالي الجويني، فإن الجويني ـ عفا الله عنه ـ كان من أساطين الأشاعِرة، الذين لا يُثبِتون صفة العلوِّ كما يُثبِتُها أهل السُّنَّة والجماعة، فكان يُقرِرُ يومًا في مجلِسِه ويقول: (كان الله ولا شيء) وهذه الجملة صحيحة، الله تعالى هو الأول فليس قبله شيء، ثُمَّ أردفها بقوله: (وهو الآن على ما كان عليه)؛

(١) صحيح مسلم (٥٣٧).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٨).

يُعرِّض بنفي الاستواء، كأنه يقول أنه سبحانه لم يستوِ على عرشه هو باقٍ على ما كان عليه. فتنبه لهذا المعنى أبو جعفر الهمداني وقال له: دعنا من ذِكر العُلو والاستِواء وأخبِرني عن هذه الضرورة التي يجِدُها أَحدُنا في قلبه؛ ما قال عارف قط يا الله، إلا وَجَدَ في قلبه ضرورة بطلب العلو، لا يَلتفِت يمنة ولا يسرة؟ فجعل الجويني يلطِمُ على رأسِه ويقول: حيرني الهمداني! حيرني الهمداني!(١). فقد أتاهُ بدليلٍ فطري لا يتمكنُ من مدافعته.

.... قَرِيبٌ مُجيبٌ بالوَرَى مُتودِّدُ

قرن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين إثبات العلو وإثبات القُرب. لأن بعض الناس يتوهم أن العلو والقرب لا يجتمعان، قياسًا على المخلُوقين، فإذا كان الإنسان في الأعالي، لا يكونُ قريبًا بل يكونُ بعيدًا، فلذلك أردف الناظِم صفة العلو بإثباتِ صفة القُرب؛ ليُبين أنه لا تنافي بين علو الله وقُربِه، فهو سبحانه قريبٌ في علوه، عليٌّ في دُنوِه.

وقد جمع اللهُ تعالى بينهما في آيةٍ واحدة في مطلع سورة الحديد فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ـ هذا دليلُ العلو ـ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]،

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠) (٤/ ٤٤، ٦١)، العلو (ص٢٥٩).

فلا تنافي بين العُلوِ والمعية، ولا بين العُلو والقُرب، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلا مُنافاة بين العلو والمعية، وقال على لِسانِ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]. لكن ليس المقصُود بهذا القُرب أن الله بذاته مختلط بخلقه، حاشا وكلَّا.

قال الناظم في تفسيره: (قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩].

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن، باسمه «القريب» اسمه «المجيب»)[1].

وفي «صحيح البُخاري»، أن النبي ﷺ كان مع أصحابه في سفرة، فصعدوا ثنية، فارتفعت أصواتُهُم بالذِكر فقال: «**أَيُّهَا**

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٣٨٤).

النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ» متفق عليه(١)، وفي رواية: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**» رواه أحمد(٢) وليس معنى ذلك أن الله تعالى ﷻ بين الراكِب وبين عُنقِ راحِلَتِه، لكنه قربه ﷻ بصِفاتِ رُبُوبِيتِه؛ بسمعه وبصره وعلمه وإحاطته.

والمعية تنقسم إلى:

معية عامة: تتضمن علم الله بالخلق، واطلاعه على جميع أحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة، وتشمل المؤمن والكافر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، وقول النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ**» متفق عليه(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد ثبت عن السلف أنهم

(١) صحيح البخاري (٦٦١٠)، صحيح مسلم (٢٧٠٤).
(٢) المسند (١٩٥٩٩)، النسائي في الكبرى (٧٦٨٠) قال شعيب الأرنؤوط: على شرط الشيخين.
(٣) صحيح البخاري (٦٦١٠)، صحيح مسلم (٢٧٠٤).

قالوا: هو معهم بعلمه، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل وغيرهم[(١)].

معية خاصة: معية تتضمن الإحاطة والنصرة والتأييد. وهي خاصة بالمؤمنين..

وتكون مقيدة بوصف: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]. أو مقيدة بشخص معين، قال تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦][(٢)].

ثم قال: **(بالوَرَى مُتوِّدُّ)**.

أفادنا المؤلف بأن الرب سبحانه يتودد إلى خلقِه، ولذلك كان من أسمائه الحسنى الودود، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٥).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٥ ـ ٤٩٩).

الوُدّ: غاية الحُب. فربُنا سبحانه وبحمده له حب ووِدٌ حقيقيان يليقانِ بجلاله لا يُشبِهان حُب وود المخلُوقين. محبة المخلوق مخلوطة بعاطفة ويلحقُها ضعف وانكسار، لكن محبة الخالق ليست كذلك. ليس كمثله شيء، سبحانه وبحمده فلا يلزمها شيء من لوازِم البشرية.

١٢ ـ هُوَ الحَيُّ والقَيُّومُ ذو الجودِ والغِنَى وكُلُّ صِفاتِ الحَمدِ للَّه تُسْنَدُ

قرن الله تعالى بين هذين الاسمين الكريمين (**الحيّ والقيوم**) في ثلاثة مواضع في كتابه:

١ ـ في آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ ـ وفي مطلعِ سورة آلِ عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢]

٣ ـ وفي سُورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: ١١١].

الحَيّ: مَنْ لهُ الحياة الكاملة التي لم تُسبَق بعدم، ولا يلحَقُها فناء.

والمخلوق حي، قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [يونس: ٣١] والفرق بين حياة الخالِق وحياة المخلُوق: أن حياة المخلُوق: مسبوقة بعدم ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، ويلحَقها فناء ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾

[غافر: ١٦]، فلا يُجيبَهُ أحد، فيُجِيبُ الجبار نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ١٦].

وأما حياة الخالِق: فحياةٌ كاملة بجميع صِفات الحياة من السمع والبصر والإرادة والكلام وغير ذلك.

القيُّوم: القائم بنفسه، المُقيم لغيره. فلا قيام لأحدٍ إلا به. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، فالعرش العظيم فما دونه لا قيام له إلا بالله رب العالمين.

فالله تعالى يقرِنُ بين هذين الاسمين العظيمين وقد جاء في بعض الآثار أنهما اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى[(١)].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدعا رجل فقال: يا بديع السماوات يا حي يا قيوم إني أسألك، فقال: **أتدرونَ بما دعا؟ والذي نفسي بيده دعا الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب**» سنن أبي داود، الترمذي، والنسائي[(٢)].

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة وآل عمران وطه**» قال الألباني في السلسلة الصحيحة: إسناده حسن (ص٧٤٦).

(٢) سنن أبي داود (١٤٩٥)، الترمذي (٣٥٤٤)، النسائي في الكبرى (١٢٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥)، وأحمد في المسند (١٢٢٢٦ ـ ١٣٥٩٥ ـ ١٣٨٢٤)، الحاكم في المستدرك (١٨٥٦)، وقال: =

لأن هذين الاسمين اشتملا على معاني أسماءِ اللهِ الحُسنى.

فالحي: يدِلُّ على الصِّفات الذاتية.

والقيوم: يدلُ على الصِفات الفعلية.

فهو قائم بنفسه؛ فيفعل ما يشاء. مُقيم لغيره؛ فيخلُق ما يشاء. فصار مرجِع جميع الصِّفات إلى هذينِ الاسمين.

قال ابن القيم: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى: هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام؛ ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ ولا حزنٌ ولا شيء من الآفات، ونقصان الحياة تضر بالأفعال، وتنافي القيومية، فكمال القيومية، لكمال الحياة، فالحي المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة، فالتوسل بصفة الحياة القيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال(١).

وقال: من أدمن: يا حي يا قيوم، لا إلٰه إلا أنت، أورثه

= صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجه، وابن حبان (٨٩٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٢٩٣٦١)، صححه ابن حبان والحاكم والذهبي والألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ دون لفظة «الحنان»، وحسنه ابن حجر والسخاوي. وللحديث طرق كثيرة لمراجعتها راجع كتاب إتحاف المسلم بما صح في اسم الله الأعظم لـ(عبد الفتاح محمود سرور)، وانظر بحثًا بعنوان «اسم الله الأعظم»، تأليف د. عبد العزيز الفريح.

(١) زاد المعاد (٤/ ١٨٥) الرسالة.

ذلك حياة القلب والعقل. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه، شديد اللهج بها جدًّا، وقال لي يومًا: لهذين الاسمين، وهما الحي القيوم، تأثير عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم[١].

ووصف الناظِمُ ربَّهُ ﷻ بأنه ذو الجودِ والغِنَى، كما قال ربنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يد الله ملأى، لا يغيضُها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذُ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغِض ما في يده**» رواه البخاري[٢]، سبحانه وبحمده، كل الذي أنفقه الله منذ خلق السماوات والأرض لم ينقص ما في يمينه.

أما الجود: فهو غاية الكرم. وأما الغنى: فهو المُلك الواسِع الفائض.

وَجُوده سبحانه صادر عن كمال غناه، فلذلك كان عطاؤه واسعًا، وفضله جزيلًا، فاستحق جميع المحامِد على الحقيقة.

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم: (بيَّن سبحانه في هذه الآية أَن فقر العباد

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٨).
(٢) صحيح البخاري (٧٤١١).

إليه أَمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أَن كونه غنيًّا حميدًا [أمر] ذاتى له، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أَوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته، لا لأَمر أَوجبه. فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إِمكان، بل هو ذاتي للفقير. فحاجة العبد إِلى ربه لذاته، لا لعلة أَوجبت تلك الْحاجة، كما أَن غنى الرب سبحانه لذاته، لا لأَمر أَوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا ‏ ‏ ‏ ‏ كما الغنى أبدا وصف له ذاتي[(١)]

ثم قال الناظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣ ـ أحاط بِكُل الخلق عِلمًا وقدرةً ‏ ‏ ‏ ‏ وبِرًا وإحسانًا فإياه نعبُدُ

(أحاطَ) المُحيط: من أسماء الله الحُسنى. والإحاطة: صفة من صِفاتِه سُبحانه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

وإحاطة الله نوعان: إحاطةٌ مكانية، وإحاطةٌ زمانية. ويدل على ذلك قولهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: ٣]. فهذه الأسماء الأربعة فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء**

(١) طريق الهجرتين (٢٢)، دار ابن القيم بالدمام.

وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء» رواه مسلم[١]. فالأول والآخر: تضمنا الإحاطة الزمانية، والظاهر والباطن: تضمنا الإحاطة المكانية. فلهذا كان مُحيطًا، ولمَّا كان علمه تعالى مُحيطٌ بكلِ شيء، وقدرتُه نافِذةٌ في كل شيء، وبرُّه وإحسانُه واصلين لكل شيء؛ استحق أن يُعبدَ وحدهُ وألا يُعبد سِواه.

فلهذا قال الناظِم: (فإياه نعبُدُ).

يعني: إياه لا سِواه، بسبب ما اتصف به من هذه الصفات الكامِلة العلية.

قال الناظِم ـ رحمه الله تعالى ـ:

١٤ ـ ويُبصِرُ ذرَّاتِ العوالِمِ كُلَّهَا وَيسْمعُ أصواتَ العِبَادِ وَيَشْهَدُ

السميع والبصير والشهيد: من أسماء الله الحسنى، وتتضمن السمع والبصر والشهادة على ما يليق بجلاله وعظمته.

أما السمع: فهو إدراك الأصوات. وأما البصر: فهو إدراك الهيئات. وأما الشهادة: فهي إداراك الواقعات. ولله من ذلك المثلُ الأعلى. فهو سبحانه يسمع ويبصِرُ دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. كما يعلم السِّر وأخفى سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمدُ لله الذي وسِع سمعهُ الأصوات لقد جاءت المُجادِلة إلى النبي ﷺ تُكلِّمُه وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقول)، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١] رواه أحمد في المسند، ابن ماجه، والنسائي[(١)].

والقرآن العظيم مليء بالآيات الدالة على إثبات السمع والبصر.

والإيمان بهذه الصفات يثمر في القلب ورعًا وتقوى، فإن العبد إذا آمن بأن الله تعالى سميع حَمَله إيمانه ذلك على أن يسمع اللهُ منه ما يُرضيه، وأن لا يسمع اللهُ منه ما يُسخِطه. إذا عَلِم العبد بأن الله سميع تكلم بالكلمة التي يُحبها الله ويرضاها، وعَقَل لسانه عن الكلمة التي يُبغِضُها الله. وإذا عَلِم بأن الله بصير حَمَله إيمانه ذلك على أن يُرِيَ الله من نفسه ما يُحبه ويرضاه، ومنعه ذلك من أن يراه الله تعالى على شيءٍ يُسخِطُه. هذه ثمرة الإيمان بالأسماء والصفات.

قال العتبي: لقي رجل أعرابية فأرادها على نفسها فأبت وقالت: أي ثكلتك أمك! أما لك زاجر من كرم؟ أما لك ناهٍ من دين؟ قال: قلت: والله لا يرانا إلا الكواكب؛ قالت: ها بأبي أنت، وأين مكوكبها؟[(٢)].

---

(١) المسند (٢٤١٩٥)، سنن ابن ماجه (١٦٥)، سنن النسائي (٣٤٦٠) صححه الألباني.

(٢) شعب الإيمان (١/ ٥١١).

وبِناءً عليه فإذا أوصد الإنسانُ الأبواب وأرخى الستور، فليعلم أنه تحت سمع الله وبصره.

هذه ثمرة الإيمان بأن الله سميع وبصير. وقل مِثلُ ذلك في سائر أسماء الله الحسنى التي لها أحكامٌ مُتعدية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٥ ـ لَهُ المُلْكُ والحمْدُ المُحيطُ بِمُلكِهِ ....

قدم الجار والمجرور في قوله: **(لَهُ المُلْكُ والحمْدُ)** للدلالةِ على الاختصاص كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١]، وفي «صحيح مُسلِم» مرفوعًا: «**الحمدُ لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمدُ لله تملأنِ، أو تملآ ما بين السماوات والأرض**» رواه مسلم[(١)]، فحمدُ الله محيطٌ بكل شيء.

وكانت تلبية النبي ﷺ بالتوحيد كما في المُتفقِ عليه: «**لبيك اللَّهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والمُلك**» متفق عليه[(٢)]، ولهذا فإن ضبطها بكسر الهمزة، أولى من ضبطِها بفتح الهمزة، فتكونُ استئنافية (إنَّ الحمد والنعمة لك والمُلك) وبالفتح تعليلية للجملةِ قبلها والمقصُود: أن الحمد كُله والمُلك كُله لهُ لله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣).

(٢) صحيح البخاري (٥٩١٥)، صحيح مسلم (١١٤٨).

وقال في الشطر الثاني:

.... وحِكمتُهُ العُظمى بها الخَلقُ تشْهَدُ

من أسماءِ الله تعالى: الحكيم. والحكيم مُتضمِنٌ لصفة الحِكمة، وهي: وضعُ الشيءِ في موضعه. والإحكام: هو الإتقان. وربُنا سبحانه وبحمده له الحُكم وله الحِكمة.

فأمَّا الحُكم فهو ثلاثةُ أنواع: حكمٌ كوني، وحكمٌ شرعي، وحكمٌ أُخروي.

فحكمه الكوني: هو ما يقضيه ﷻ في سماواته وأرضِه، من الخلق، والرَّزق، والإحياء، والإماتة، والصحة، والغنى، والفقر، والمرض، وغير ذلك.

حُكمُه الشرعي: هو ما أودعهُ كِتابه، وأوحاهُ إلى رُسُلِه من الحلالِ والحرام كما قال في أول سورةِ المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: ١].

وأمَّا الحُكمُ الأُخروي: فهو حُكمُه في الناس يومَ القيامة؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير. فتبين أن الحُكمَ كُلهُ لله، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأما حِكمتُه تعالى فهي نوعان: شرعية دينية، وكونيةٌ غائية.

فالشرعية الدينية: هي التي لأجلها أُحكِمت الأحكام، فينهى الله لحِكْمَه، ويأمُرُ الله لحِكْمَه، فليس شيءٌ في شرع الله إلا له ثمرةٌ وفائدةٌ وقصد.

وأما الكونية الغائية: فهي حِكمته ﷻ فيما يقضيه في كونه. فجميع أفعال الله تعالى وأقداره مُعلَّلة، وليس يفعل شيئًا بلا حِكمة وبلا علة. ومشيئته مقرونة بحكمته. فهو تعالى مُنزهٌ عن السَّفه، ومُنزهٌ عن الفِعل المُجرد عن المقاصِد. وربما قال قائل: إن هذا أمر بدهي! فالرب ﷻ حكيم. ولكن وُجِد في المُتكلِمين من يَقولُ: إن الله يفعلُ لا لحكمة وإنما لمحض المشيئة، وهم الأشاعرة، فإنهم لما كانوا جبرية في باب أفعال الله، ذهبوا هذا المذهب، والحق أن الله، سبحانه وبحمده، لا يفعل ولا يقضي ولا يحكم إلا لحكمة يُدرِكُها، من يُدركها وتخفى على غيره.

قال الناظِم رَحِمَهُ اللهُ: **(بها الخَلقُ تشْهَدُ).**

الخلق يشهدُون حكمة الله تعالى في شرعه وقدره، بحسبِ ما يقوم بهم من العِلم، والإيمان، والعقل، والتدبُر. ويتفاوتون في ذلك تفاوتًا عظيمًا، فمن الناس من يستنبط من حِكَمِ الله ما لا حصر له، ومن الناس من يرى الصورة الظاهرة، ولا يتفكر في المآلات والغايات.

١٦ ـ ونشهدُ أن الله يَنزِلُ في الدُّجى   كما قاله المَبعُوثُ بالحقِّ أَحمدُ

اختار الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ من صِفات الله تعالى أنواعًا، فاختار من الصِفات الفعلية: صفة النزول.

وذلك أنه قد تواترت الأحاديث الصحيحة المروية عن نحو ثمانية وعشرين صحابيًّا في إثبات نزول الرب ﷻ إلى سماء الدنيا. وهي مبثوثة في الصحيحين والسنن والمسانيد والمعاجِم، ومن أشهرها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في المُتفقِ عليه أن النبي ﷺ قال: «**يَنزِلُ ربُنا تبارك وتعالى كُل ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حين يبقى ثُلث الليلِ الآخِرِ يقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفِر له**» متفق عليه[(١)].

والسماء الدُّنيا: هي الأدنى إلى الأرض ولهذا سُميت دنيا.

وثُلث الليل الآخِر: يعلم بأن يحسب الإنسان ما بين مغيب الشمس إلى طلوع الفجر، ثُمَّ يُقسِّمه أثلاثًا. وهذا يختلِفُ من مكانٍ إلى مكان، ومن زمانٍ إلى زمان، ومِن فصلٍ إلى فصل.

هذا الحديث تلقاه أهل السُّنَّة والجماعة بالقبول، وآمنوا بما دلَّ عليه من نزول الرب نزولًا حقيقيًّا يليق بجلاله وعظمته، ولم يروا في ذلك منقصةً، بل رأوا فيه كمالًا، وابتهجوا بهذا الحديث، فرأوا أنها فرصةٌ سانحةٌ لمناجاة ربهم.

---

(١) صحيح البخاري (١١٤٥)، صحيح مسلم (٧٥٨).

فلذلك كانوا هم فرسان الليل يستغفرون بالأسحار.
فالواجب إثبات هذه الصفة لله تعالى كما أثبتها له نبيه ﷺ.

أمَّا أهلُ البدع فقد شرقوا بها وحرَّفوها، وقالوا: المقصود بقوله: (ينزل ربنا)؛ أي: ينزل أمرُه، أو تنزِلُ رحمته، أو ينزلُ ملكٌ من ملائكته. وكل هذه التأويلات منافية للنص واللغة، فلا يحِلُ ليُّ أعناق النصوص بسبب شبهة سابقة، فجميع ما ذكروه لا دليل عليه، بل إنه يترتب عليه لوازم فاسدة؛ فهل يُعقل أن يكون هذا الأمر أو الرحمة أو المَلَك من الملائكة يقول: من يدعوني؟! من يسألني؟! من يستغفرني؟! هذا لا يُمكِن إلا أن يصدُر عن الرب ﷻ. وهل يختص نزول أمره بهذا الوقت من الليل؟! وأي فائدة للعباد أن يكون منتهى نزول رحمته السماء الدنيا، ولا تبلغهم في الأرض؟!.

وهكذا القول في جميع الصِّفات التي وصف بها الرب نفسه، يجب على المؤمن أن يطيب بها نفسًا وأن يقرَّ بها عينًا، وأن لا يستشنِع شيئًا مما أخبر به النبي ﷺ، فإن نبينا ﷺ أعلمُ بربه، وأَغير على ربه وأحسنُ بيانًا وحديثًا، فهو يعلمُ مدلولات الألفاظ. فلا وجه أن يستدرك أحدٌ على كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وبهذا أتمَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالتوحيد وانتقل بعده إلى موضوع النبوات **فقال:**

١٧ ـ وَنَشهَدُ أن اللَّه أرسلَ رُسْلهُ ....

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلّغ شرعه لعباده عن طريق المُصطَفينِ الأخيار من الأنبياء الكرام. فالإيمان بالأنبياء من أصول الإيمان، ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقـــــال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فلا بد من الإيمان بالنبيين والمرسلين.

الرُّسُل: جمع رسول، فتارةً يُراد به المعنى الخاص للرسول، وتارة يراد به الرسول والنبي معًا. بين لفظ الرسول والنبي، فإن للعلماء في التمييز أقوال متعددة.

القول الأول: إن الرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه. والنبي: من أُوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

ويَرِدُ على هذا التفريق إشكال، وهو: كيف يوحي الله تعالى إلى نبي بشرع ولا يأمُرهُ بالتبليغ؟.

القولُ الثاني: إن الرسول: هو من أوحي إليه بشرعٍ جديد وأُمِر بتبليغه. والنبي: هو من أوحي إليه بشرع رسولٍ قبله وأُمِر بتجديده. وهذا في الحقيقة له حظ من النظر. لكن يُشكل عليه قول الله عَزَّ وَجَلَّ في شأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على لسان مؤمنُ آل فرعون:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، مع أن يوسف عليه السلام لم يأتِ بشرعةٍ جديدة بل قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، فكان يعملُ بشريعة آباء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] فأجرى في أخيه بنيامين شِرعتهُم، وهو أن يأخذه بسبب سِرقتِه.

القول الثالث: ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحِمَه الله ـ في كتاب النبوات[(١)] إلى تفريقٍ قريب ومُقنِع وهو أن الرسول: من أُرسِل إلى قومٍ مخالفين، لدعوتِهم إلى الله عز وجل. لأن هذا هو ما تدلُ عليه كلمة الرسالة. وأما النبي: فهو من يُبعَثُ في قومٍ مُوافقين، للحُكمِ بينهم، والقضاء بينهم، وإرشادهم، وتعليمهم، ونحو ذلك.

وكُلُّ من ذكرهُم الله في القرآن، أنبياء رُسُل، وعِدَّتُهُم خمسةٌ وعِشرون رسُولًا نبيًّا، كانوا يحملون رسالةً إلى قوم مُخالفين، ومنهم يُوسف عليه السلام فإنه كان يدعو آل فرعون إلى دين الله.

أما الأنبياء: فهم الذين يبعثون في بني إسرائيل، بصفة قضاة ومعلمين ومذكرين، كأنبياء بني إسرائيل الذين يذكُرونهم في العهدِ القديم.

(١) انظر: النبوات (٢/ ٧١٤ ـ ٧٢١).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

وكَلمة الرسالة: تدل على الإرسالُ؛ أي: البعث. وأمَّا النبوة: فهي مأخوذة من الإنباء وهو الإخبار، أو من النَّبْوْة؛ أي: الارتفاع، وربما استعمل أحدهما بمعنى الآخر، كما في لفظ الإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، والتوبة والاستغفار ونحوها.

ثم بيَّن فحوى رسالتهم **فقال:**

.... **بآياتِهِ للخلقِ تهدي وتُرشِدُ**

والآيات التي أرسل الله بها الرسل نوعان: كونية، وهي المعجزات. وشرعية وهي الوحي.

فإن الله تعالى لا يبعثُ نبيًّا إلا ويُجرِي على يديه ما على مثلهِ يؤمِنُ البشر، كما قال نبينا ﷺ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه[١]، فكانت معجزة نبينا ﷺ مُعجزة خالدة. ولا بُد للناس من دلائل يهتدون بها إلى صِدق هذا النبي المُرسل.

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٧٤)، صحيح مسلم (١٥٢).

ودلائل النبوة لا تختص بما يُسمى المعجزات والخوارق. بل هي كثيرة جِدًّا.

فمن دلائل النبوة ـ بلا ريب ـ: هذه الآيات التي تسمى معجزات. والأولى أن نُسميها آيات. لأن الله سمَّاها كذلك فقال الله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: ٢٢] ولم يقل مُعجزة، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] فالمُحافظة على اللفظ القُرآني أولى.

ومن دلائل النبوة: النظر في سيرهم. فإن من تأمل في سير الأنبياء عَلِم صدقهم وأنهم لا يكذبون على رب العالمين.

ومن دلائل النبوة: النظر في مضمون دعوتهم. فمن تأمل فيما يدعون إليه من التوحيد والفضيلة والأخلاق والعبادات عَلِم أن مشروعهم ليس مشروعًا شخصيًّا، أو وطنيًّا، أو تجاريًّا، أو نحو ذلك، بل علم أنهم من عند الله، وكل عاقل يُدرِكُ ذلك.

ومن دلائل النبوة: بشارات بعضهم ببعض. فإذا ثبتت نبوة نبي، ثم أخبر أنه يأتي بعده نبي، كان ذلك دليلًا على صدق النبوة كما قال تعالى عن عبده عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. والبِشارات بأنبياء الله بعضهم لبعضٍ في السُّنَّة وفي كتب أهل الكتاب كثيرة، لا نستطرد بذكرها.

ومن دلائل النبوة: نصرُ الله، وتأييده لهم، وعدم خِذلانه إياهُم. فحين يخرج رجل إلى الناس ويقول: يا أيُّها الناس أنا

رسُولٌ من ربِّ العالمين وقد قال ربكم كذا وكذا، وأمركم بكذا وكذا، ونهاكم عن كذا وكذا. ثم نجد أن الله تعالى يؤيده وينصره، وينقله من نصرٍ إلى نصر، ومن هزيمة إلى نصر، ويُكثِّرُ أتباعه، ويجعل العاقبة له. فذلك يدل على تصديق الله ﷻ له بهذه الماجرَيات، ولو كان ضد ذلك ما أمهله الله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. ما كان الله ليدع أحدًا يكذب عليه، ويستمرئ الكذب عليه مدة طويلة، حتى يفضحه. ولهذا لما خرج الكذابون من أمثال مسيلمة، فضحهم الله. فلا يكاد يُذكر مسيلمة، حتى يوصف بالكذاب. وهكذا إلى يومنا هذا، جميع المتنبئين الكذابين يفضحهم الله، ويخذلهم، ولا يؤيدهم.

فهذه دلائل خمس، تدل على صحة نبوة الأنبياء. وأما آياتهم الشرعية: فهي ما آتاهم الله تعالى من الوحي. فقد آتى الله موسى التوراة، وآتى داود الزبور، وآتى عيسى الإنجيل، وآتى محمدًا القرآن.

ثم إن الناظم رحمه الله أشار إلى مسألة المفاضلة بين الأنبياء، فقال:

١٨ ـ وفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ والخَلْقِ كُلِّهِم بحكمتِه جَلَّ العَظيمُ المُوحَّدُ

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فلا ريب أن بين الرسل تفاضل.

وأما قوله ﷺ: «**لا تُخيروا بين الأنبياء**» متفق عليه[١]، فإنه لا يدل على نفي الفضل، وإنما عن المفاضلة على صفةٍ معينة، فالمُفاضلة المنهيَّ عنها، هي ما كانت على سبيل التنقص والإزراء بالمفضول. أما من حيث الواقع فلا شك أن بين الأنبياء تفاضل، كما أن بين الخلق تفاضل. ولهذا قرن الشيخ بين هاتين القضيتين، فقال:

.... وفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ والخْلقِ كُلِّهِم

فالرسل يفضل بعضهم بعضًا، والخلق يَفضُل بعضهم بعضًا، ولا شك أن الرسُل أفضل الخلق.

ثم خصّ نبينا ﷺ بما يليقُ به، وذكر بعض أوصافه، فقال:

١٩ ـ فأفْضلُ خلقِ اللَّهِ في الأرضِ والسَّما نبيُّ الهُدَى والعَالمين مُحمَّدُ

لا شك أن نبينا محمدًا ﷺ هو أفضل الناس، فإنه ـ بأبي هو وأمي ﷺ ـ يقول: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رواه مسلم[٢]، وفي رواية الترمذي «**وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ**»[٣]، ومن دليل فضله على الناس أجمعين حديث الشفاعة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ**

(١) صحيح البخاري (٦٩١٦)، صحيح مسلم (٢٣٧٤).
(٢) صحيح مسلم (٢٢٧٨).
(٣) سنن الترمذي (٣١٤٨) صححه الألباني.

الْقِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ بِمَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي ائْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهْ»، وفي رواية: «فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ (تُعْطَهُ) وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» متفق عليه[1].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٠)، صحيح البخاري (٧٥١٠).

هذا المقام المحمود الذي وعد الله نبيّه إياه، فإن (عسى) من الله تحقيق: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال رسول الله ﷺ: «**الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الشَّفَاعَةُ**»[(١)].

وقد وصفه بأنه نبيُّ الهدى، ونبي العالمين. لأنه أُرسل بالهدى للعالمين جميعًا، وكان من قبلَه من الرسل يرسل إلى قومه خاصة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فلا شك أن رسالته للعالمين، إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، كلهم من أمة الدعوة لا يخرج عن ذلك أحد بخلاف من سبقه.

ثم قال:

٢٠ ـ وخصَّ له الرحمٰن أصحابه الأُلى أقامُوا الهُدى والدِّين حقًّا ومهدوا

هذا من حسن التصنيف، وترتيب المسائل؛ فقد ابتدأ أولًا بذكر التوحيد وما يتعلق بالرب سبحانه، وما ينبغي له من الحقوق؛ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. ولما كان لا بد من العلم بالواسطة بين الربِ والخلق ثنى بذكر الأنبياء، ودلائل النبوة. ولما كان لا بد من معرفة الواسطة بيننا وبين الأنبياء

(١) المسند (١٠٢٠٠)، صححه الألباني: صحيح الجامع (٦٧٢١).

ثلث بذكر الصحب الذين اختارهم الله تعالى عن علمٍ وحكمة ليكونوا وزراء نبيه وحوارييه. فلهذا قال:

وخصّ له الرحمٰن أصحابه الأُلى ....

هؤلاء الصحابة الكِرام الذين أووا إلى كنف النبي ﷺ وهم نُزَّاع القبائل والأُمم؛ وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وسائر أصحابه من العرب، جمعهم الله تعالى من مُختلف الشعوب والقبائل، وضمهم إلى نبيه ﷺ لأمرٍ علمه فيهم من صدق اللهجة، وبِر القلوب وصفاء العقول، فكانوا أكرم الناس معدِنًا.

والصحابة: جمعُ صاحب، أو صحابي.

وتعريف الصحابي: من لقي النبي ﷺ في حياته، مؤمنًا به، ومات على ذلك[(١)].

الوصف الأول: الاجتماع واللقيا.

فلو أنه آمن به في حياته، ولم يلقه، كالنجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه لا يُسمى صحابيًّا، وإنما يسمى مُخضرمًا.

ولا تلزم الرؤية؛ لأنه ربما كان كفيفًا.

الوصفُ الثاني: الإيمان فلو قُدِّر أنه لقيه حال شركه، وفارقه، ثم آمن به بعد ذلك، فإنه لا يَثبُت له وصف الصحبة.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١/٨ ـ ٩).

الوصف الثالث: الحياة لا بد أن تكون هذه الرؤية حياتية، وذلك ليُخرِج مثلًا وحيدًا وهو: أبي ذؤيب الهذلي، الذي هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ وراه بعينَي رأسه مسجًّى! فهذا لا يعد صحابيًّا(١). ومثل ذلك: لو رآه حال النوم. فلا تثبت بذلك صحبة.

الوصف الرابع: الموت على الإسلام: فلو قُدِّر أنه ارتد لزال وصفُ الصُّحبة.

فمُسيلمة كان قد لقي النبي ﷺ في وفدِ بني حنيفة، وأظهر الإسلام، لكنه ارتد. أما طُليحة بن خويلد الأسدي فقد أسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام، فعادت له الصُحبة. هذا هو القولُ الصحيح: أن من رجِع إلى الإسلام، عاد له وصف الصُحبة.

وحتى لو رآه عن بعد، أو اجتمع به عن بعد، ثبت له وصف الصحبة، فمن شهد حجة الوداع أكثر من مئة ألف، لا يلزم أن يكون كل واحد منهم بعينه باشر لقاء النبي ﷺ.

قال الله عنهم تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ

(١) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور، واسمه خويلد بن خالد. أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره، وقدم المدينة يوم وفاته، فشهد السقيفة، وبيعة أبي بكر، والصلاة على النبي ﷺ ودفنه، قال ابن كثير: توفي غازيًا بإفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣/ ٣٥٨)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٢٤٥)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ١٤٥).

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وهم محمد وأصحابه.

وقال ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» متفق عليه[(١)].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩] قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيِّه[(٢)].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته؛ ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً، فهو عند الله سيئ[(٣)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستنًّا فليستنّ بمن

(١) صحيح البخاري (٣٦٥١)، صحيح مسلم (٢٥٣٣).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٩٨).
(٣) مسند أحمد (٣٦٠٠)، حسنه شعيب الأرنؤوط.

قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لإقامة دينه، وصحبة نبيه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[(١)].

إي والله! فإن أصحاب نبينا ﷺ قد بذلوا مهجهم في سبيل إقامة الدين. ومن قرأ السيرة النبوية، وعَلِم ما لحق الصحابة الكرام، لا سيما السابقين منهم إلى الإسلام، أدرك أنه لا كان ولا يكون مثلهم، رضوان الله عليهم، فأصحاب نبينا ﷺ اختارهم الله تعالى عن علم وحكمةٍ، وأودع فيهم من الصفات النوعية، ما أهَّلتهم لِأن يحملوا هذا الدين، ويسيحوا به في الأرض، ويفتحوا به القلوب قبل القلاع والحصون. قاموا مع نبينا ﷺ بالهجرة، والنُّصرة، والجهاد في سبيل الله، وتعلم العلم، والنفقة في سبيل الله، وما إن تُوفي رسول الله ﷺ حتى قاموا بأمر هذا الدين فساحوا في فِساح الأرض ونشروا الإسلام في الخافقين.

وفضائل الصحابة أشهر من أن تُذكر، فلذلك كان حُبهم فرضٌ مؤكدٌّ. لهذا **قال:**

٢١ ـ فحُبُ جميع الآلِ والصحبِ عِندنا معاشِر أهل الحق فرضٌ مؤكدُ

الآل: فهو مأخوذٌ من الأول وهو الرجوع[(٢)]. فآل الرجل: هم ذووه، ومن يرجعُ إليهم، وهذا الاصطلاح إذا جاء

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٦)، حلية الأولياء عن عبد الله بن عمر (١/ ٣٠٥).
(٢) انظر: القاموس المحيط، المصباح المنير، مادة: (آلَ).

منفردًا، غير مقرون بذكر الصحب، فالمراد به أتباعه على دينه إلى يوم القيامة. أما إذا جاء مقترنًا بالصحب فالمراد به المؤمنون من أهل بيته(١). وآل النبي ﷺ لا شك أن لهم مزية، ولهم منزلة. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] على أحد التفسيرين(٢). وقال النبي ﷺ لعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وقد شكا إليه أن بعض قريش يجفو بنو هاشم فقال ﷺ: «**وَاللهِ، لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ إِيمَانٌ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي**» مسند أحمد(٣).

لكن لا بد أن يكون الرجل من آل البيت مؤمنًا، أما إن كان كافرًا فلا، ولا كرامة. فلا محبة لأبي لهب، مع أنه عمّ النبي ﷺ. فإذا اجتمع فيه الإيمان والصحبة صار حبه مضاعفًا.

قال:

.... **معاشِر أهل الحق فرضٌ مؤكدُ**

ونصبها على الاختصاص ـ يعني ـ: أعني معاشر أهل الحق، فرض مؤكد.

ومما يدل على وجوب محبة الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، وتحريم بغضهم، قول الله ﷻ بعد ذكر المهاجرين والأنصار في سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: جلاء الأفهام (٢٢٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٢٤).

(٣) المسند (١٧٧٧)، قال شعيب: إسناده ضعيف.

التابعون إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

لما اختصم رجلان من أصحابه، وتكلّم أحدهما في حق الآخر، وكان المتكلَّم فيه من السابقين إلى الإسلام؛ غضب النبي ﷺ وقال: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» متفق عليه[(١)].

وقد ضل في هذا الباب طائفتان: طائفة النواصب، وطائفة الروافض.

فالنواصب: أبغضوا أصحاب رسول الله وأهل بيته. وناصبوهم العداء، واستحلوا دماءهم، وأعراضهم، وأموالهم.

وأما الروافض: فإنهم غلوا في حبِّ أهل بيت رسول ﷺ غلوًّا شنيعًا، حتى إن منهم، وهم السبأية، من وصف عليًّا رضي الله عنه بالألوهية، وقال: أنت الله!. فخدّ لهم الأخاديد في باب كِندة، وأضرم فيها النار وقذفهم فيها، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قُنبرًا[(٢)]

(١) صحيح البخاري (٣٦٧٣)، صحيح مسلم (٢٥٤٠).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٦٤٣).

قُنبرًا: غلامه. ومنهم من يكون دون ذلك؛ فيغلون في علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ويرفعونهم فوق منزلتهم، وبإزاء ذلك يسبون الصحابة الكرام، كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم.

أما أهل السُّنَّة والجماعة؛ فقد هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فعرفوا حق الصحابة، وأنزلوهم منازلهم، على رُتَبِهم، وفاضلوا بينهم بما فاضل الله به بينهم.

فإن الله فضّل المهاجرين على الأنصار، وفضّل أهل بدر، وفضّل أصحاب بيعة الرضوان، وفضّل من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعد الفتح وقاتل، والتمسوا الأعذار في الآثار المروية في مساويهم أو بعضهم، وبينوا أن منها ما هو كذب، ومنه ما قد زيد فيه ونقص وغُيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذرون؛ إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون؛ والمجتهد المصيب له أجران، والمخطئ له أجر واحد، ولهم من السوابق والحسنات الماحية والفضائل، ما يجعل ما يُنسب إليهم، إن صح، نزرًا يسيرًا مغمورًا بجنب فضائلهم.

ثم انتقل بعد ذلك إلى مسألة أخرى، **فقال:**

٢٢ ـ وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدُ

٢٣ ـ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللَّهِ إِذْ هُوَ أَمْجَدُ

هذان البيتان يتعلقان بمسألة القرآن وكلام الله ﷻ.

وكلام الله أعم من القرآن. فيؤمن أهل السُّنَّة والجماعة أن الله ﷻ يتكلم بكلام حقيقي مسموع بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوقين، وأن كلامه ﷻ متعلق بمشيئته، فهو يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

(وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ) [يعني: من عقيدتهم] أن كلامه هو اللفظ والمعنى.

الكلام لا يسمى كلامًا إلا بمجموع أمرين: اللفظ والمعنى. ولا يُسمى كلامًا إذا كان مجرد معنىً يقوم في النفس، حتى يلفِظَ به. فحقيقة الكلام هو مجموع الأمرين؛ اللفظ والمعنى.

وفي هذا رد على طوائف من المتكلمين كالكلابية والسالمية والأشاعرة والماتريدية، فإنهم يقولون: إن كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه، وأن الله لا يتكلم متى شاء كيف شاء.

أما أهل السُّنَّة والجماعة فيعتقدون أن الله يتكلم بكلام تسمعه الآذان. فقد سمع كلامه الأبوان في الجنة حين قال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣]، فقد أجابا الله لما خاطبهما. وسمع كلامه موسى عليه السلام حين قال عند الطور ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، ولهذا يُسمى

كليم الرحمٰن. ويسمعه عيسى عليه السلام ويجيبه يوم القيامة حين يقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. هذا يدل على أنه يسمع كلامه. وجبريل عليه السلام يسمع كلام الله عز وجل ولهذا تسأله الملائكة: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

فكل هذا يدل على أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

أما أهل البدع فبسبب مقدماتهم الفاسدة أنكروا تعلقه بمشيئته، وزعموا إن الكلام معنى قائم بنفسه منذ القدم، وأن ما سمعه الأبوان في الجنة، أو سمعه موسى عند الشجرة، أصوات مخلوقة لكي تعبر عن كلامه، أو تحكي كلامه القديم القائم بنفسه، ليس إلا!.

وهذا من التكلف الذي لم يخطر ببال الصحابة، ولم يَدرُ بخَلَدِهم. هل خطر ببال الصحابة أو عند أحد من السلف الصالحين أن الله لما كلّم الأبوين في الجنة، خلق حروفًا في جوّ الجنة تُعبر عن كلامه أو تحكي كلامه؟! لا والله. لو حلف حالف بين الركن والمقام أنَّ ذلك لم يَدُرْ بخلدهم ما حنث. وكذلك أيضًا لم يدر بخلدهم ولم يطف بخيالهم أن الصوت الذي سمعه موسى عند الشجرة صوتٌ خلقه الله في الشجرة ليعبر عن كلامه، كما تقول الأشاعرة، أو ليحكي كلامه كما تقول الكلّابية. كل هذا من التكلف المذموم. والواجب ـ

المتعين ـ أن نثبت أن الله ربنا يتكلم بكلام حقيقي، بحرف وصوت، يليقان به، فكلامه ﷻ هو اللفظ والمعنى سويًّا، وليس اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون اللفظ.

(ليس بمخلوق): أي: كلام الله تعالى، ومنه القرآن العظيم ليس مخلوقًا. لأنه صفته ولا يمكن أن تكون صفة من صفات الله مخلوقة.

وهذا يفسر سر التفاني الذي بذلته المعتزلة في حمل الناس على القول بخلق القرآن، فإن المعتزلة تسللوا إلى بعض الخلفاء العباسيين؛ المأمون، ومن بعده المعتصم، ومن بعده الواثق، وأقنعوهم أن القرآن مخلوق، وأن يحملوا الأمة على ذلك، لكنَّ أئمة الإسلام، لا سيما الإمام أحمد رحمه الله، وقف في هذه المسألة وقفة عظيمة حتى قيل: إن الله نصر هذا الدين بأحمد بن حنبل عام الفتنة كما نصر الدين بأبي بكر عام الردة، فقام في وجوه المعتزلة وأبى أن يوافقهم. وأرادوا بذلك فتنة أهل الإسلام بقولهم القرآن مخلوق. وإذا صار مخلوقًا فليس صفته! لأن الله تعالى بزعمهم لا يتصف بالصفات وهذا هو مذهب المعتزلة والجهمية؛ نفي الصفات عن الله عز وجل. فلم يكن الخلاف كما يصوره بعض الناس سطحيًّا أو لفظياً، بل هو خلاف حقيقي معنوي، له آثاره العميقة.

(وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَـوْلٍ كَقَوْلِ اللهِ): وأن لأحد قول كقول الله، مهما أوتوا من البيان والفصاحة والبلاغة، وقد تحدى الله الجن

والإنس أن يأتوا بمثله فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]، أو بسورة منه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فما استطعوا ولن يستطيعوا ذلك أبدًا.

(إِذْ هُوَ أَمْجَدُ) قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [البروج: ٢١]؛ أي: وسيع المعاني وعظيمها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٤ ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، وذلك أن النبي ﷺ حين سأله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الإيمان قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» رواه مسلم(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، وقال نبيه ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ**

(١) صحيح مسلم (٨).

وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» رواه مسلم[(١)]، وفي رواية «حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ» رواه مسلم[(٢)].

ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بأربعة أمور:

أولها: العلم، **ثانيها:** الكتابة، **ثالثها:** المشيئة، **رابعها:** الخلق. وتفصيل ذلك كالتالي:

الأمر الأول: الإيمان الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا، وأبداً ما كان من فعله، وما كان من فعل خلقه، فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. مع أنهم لن يُردوا لكن قد علم الله تعالى ما يكون منهم لو ردوا.

الأمر الثاني: الإيمان الجازم بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة. ودليل العلم والكتابة معًا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]. جمع الله بينهما في آية واحدة، والكتاب هو اللوح المحفوظ. وقال ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ**

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

(٢) عن طاووس قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز**». صحيح مسلم (٢٦٥٥).

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ـ قَالَ ـ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا يكون في ملكه ما لا يريد سبحانه. وفي هذا رد على القدرية الذين يثبتون مشيئة للعبد مستقلة عن مشيئة الله ﷻ.

الأمر الرابع: الإيمان بخلق الله تعالى لجميع الأشياء؛ ذواتها، وصفاتها، وحركاتها. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] و(كُلّ) من ألفاظ العموم.

فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في هذا الكون إلا بتقدير الله.

فإن قال قائل: هل الله يخلق الشر؟ هل الله يقدر الشر؟ فالجواب: نعم. كما قال نبيِّنا ﷺ: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(٢)، لكن ها هنا تفصيل وهو أن نميز بين القدر والمقدور والقضاء والمقضي؛ فباعتبار صدوره من الله: هو خير كله، أما باعتباره مقدورًا: فينقسم إلى خير وشر.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣).	(٢) صحيح مسلم (٨).

فالقدر باعتبار صدوره من الله خير كله، كما قال النبي ﷺ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» رواه مسلم(١).

الشرُّ لا يُنسب إلى الله. لأن الله قد يقدر ما نعده نحن شرًّا، لا لذات الشر، ولكن لما يترتب عليه من مقاصد.

مثال ذلك: أشرّ الشرور (إبليس).

فلولا خلق إبليس ما تميز أهل الجنة من أهل النار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق الجنة والنار، ولا رفع علم الجهاد ولا وجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا وجدت النصيحة والتوبة والاستغفار. فالله تعالى قد يقدر الشيء، وهو شر في ذاته لكنه خير باعتبار مآلآته. هذا هو معنى أن الشر ليس إليه، ولهذا قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]. وهذا من كمال فقههم وأدبهم، أنهم لم ينسبوا الشر إليه سبحانه، وأتوا بالفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، ولما كان الأمر يتعلق بالرَّشَد: قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

ففرق بين القضاء والمقضي، وبين القدر والمقدور. فصدور الأشياء من الله خير كله، والشر لا ينسب إليه، أما من حيث هي، فيقال: خير وشر؛ فالصحة خير والمرض شر،

(١) صحيح مسلم (٧٧١).

والغنى خير والفقر شر، والخصب خير والقحط شر، وهكذا.

ثم إن الناظم أشار في الشطر الثاني إلى قضية مهمة. وهي أن إثباتنا لقدر الله السابق، لا يعني سلَب العبد فعله وإرادته ومشيئته. فإن الله ﷻ أعطى العبد إرادة حقيقية، وفعلًا حقيقيًّا، ومشيئةً حقيقية. ولهذا قال: **(والعَبْد يَسعى ويَجْهَدُ)**.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥ ـ ٦] وهو العبد المؤمن، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٨ ـ ٩] وهو العبد الكافر. فأسند الله تعالى هذه الأفعال إليهم. فليس للعبد حجةٌ في القدر على فعل المعاصي وترك الطاعات.

خرج النبي صلى بأصحابه يومًا في جنازة، فجلسوا ولمّا يُلحد القبر، فقال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ**» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**لَا. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**» رواه البخاري[١]، وفي رواية: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]» متفق عليه[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٠٥).
(٢) صحيح البخاري (٤٩٤٩)، صحيح مسلم (٢٦٤٧).

معناه: أنك أيها العبد لا تدري ما هو قدر الله عليك! وقد أُعطيت الأدوات والآلات التي تُمكِّنك من الفعل أو الترك، وأُظهر لك الشرع، وأُخفي عنك القدر وقيل: اعمل؛ فلك ما كسبت وعليك ما اكتسبت.

فلا حجة لأحدٍ في القدر. ولهذا لما احتج الكافرون بالقدر، فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، أبطل الله دعواهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فسمَّى الله مقالتهم كذبًا، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه، لأن الله حكم عدل مقسط، لا يظلم مثقال ذرة. ثم أتى بالثالثة الناسفة لدعواهم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. هل اطلعتم على كتابكم ووجدتم في اللوح المحفوظ أنكم تشركون، وتُحرمون ما أحل الله، وتحلون ما حرم الله؟ والجواب: لا. وحقيقة الحال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهكذا فيقال لكل مُبطِل يحتج بالقدر، كالبطَّالين والسفهاء الذين إذا قيل لأحدهم: افعل كذا، أو لا تفعل كذا، قال: لو أن الله كتب لي لفعلت! فيحتج بالقدر على فعل المعاصي، وترك الطاعات. فيجاب بما أجاب الله به المشركين، ويقال له: هل اطلعتَ على كتابك، فعلمت أنَّ الله

قضى عليك بكذا وكذا؟ متى علمت أن هذا قدرك؟ أقبل الفعل أم بعده؟ لا ريب أنه بعده. لم يكن قبل الفعل يعلم أن هذا قدره. لو كان يعلم بأنَّ هذا قدرة لعذرناه، لكنه لم يعلم إلا بعد أن صدر منه الفعل بمحض اختيار، وسبق إصرار. فلذلك كان مستحقًّا للثواب أو العقاب.

ثم قال:

٢٥ـ وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ   مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ

٢٦ـ وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهى   وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا وَيَفْسُدُ

هذه مسألة الإيمان. وهي مسألة عظيمة شريفة. وذلك أن الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة: قول وعمل ونية. وربما قالوا: قول وعمل واتباع السُّنَّة. واختلاف ألفاظهم في هذا لاعتبارات تتعلق بالتفصيل والإجمال أحيانًا. وإلا فإن كلمة أهل السُّنَّة والجماعة مُجمِعة على أن الإيمان قول وعمل، ليس قولًا فقط، ولا عملًا فقط، بل هو مجموع الأمرين. فحقيقة الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة حقيقةٌ مركبةٌ من القول والعمل معًا.

فالقول هو: قول القلب واللسان، والعمل هو: عمل القلب واللسان والجوارح.

فآلت الأمور إلى خمسة بنود:

* قول القلب: هو اعتقاده. وقول اللسان: وهو إعلانه للشهادتين. وعمل القلب: وهو حركته وإرادته. وعمل اللسان:

وهو ما يتعبد به، ويتلفظ من الكلم الطيب. وعمل الجوارح: وهو ما تفعله الجوارح من العبادات.

نبين ذلك بالأمثلة:

* قول القلب: هو اعتقاده، وتصديقه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

* عمل القلب: ما يتحرك به القلب من الإرادات والنيات؛ كالمحبة والخوف والرجاء.

* قول اللسان: إعلان الشهادتين التي بها الدخول في الإسلام.

* وعمل اللسان: ما زاد عن ذلك من الذكر والتلاوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* أما عمل الجوارح: ما تفعله الجوارح من الركوع والسجود، والقيام والقعود، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، وإماطة الأذى عن الطريق. قال نبينا ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** [وهذا يدل على اعتقاد القلب وقول اللسان] **وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ** [وهذا يدل على عمل الجوارح] **وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» [هذا يدل على عمل القلب]، رواه مسلم[1]. وقد سمّى الله الأعمال

(١) صحيح مسلم (٣٥).

إيمانًا فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] والمقصود: صلاتكم، كما يدل عليه سبب النزول.

(مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ)؛ يعني: ليس مطلق القول، ولا مطلق الفعل، ولا مطلق النية؛ بل المقصود ما كان من الطاعات التي أمر الله بها وشرعها لعباده.

فإن كان العمل من البدع فلا يكون إيمانًا ولا كرامة.

ثم بين مسألة مهمة وهي: زيادة الإيمان ونقصانه. وذلك أن أهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. فقال:

وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى ... وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا وَيَفْسُدُ

وذلك أن الله تعالى قد ذكر في سبعة مواضع من كتابه زيادة الإيمان:

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] فذلك يدل على أن الإيمان يزيد.

٣ ـ ٤ ـ وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

٥ ـ وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

٦ ـ وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

٧ ـ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

وأهل السُّنَّة والجماعة في هذه المسألة، وسطٌ بين طرفين، وعدلٌ بين عوجين، وهدًى بين ضلالتين، فأحد الطرفين: المرجئة وهم أهل التساهل والتفريط، والطرف الآخر: الوعيدية وهم أهل الغلو والتشدد.

فأما المرجئة: فمنهم من قال: الإيمان هو مجرد معرفة القلب. وهؤلاء هم أشدهم إرجاءً، وهم الجهمية المنسوبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي. ويقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

الصنف الثاني من المرجئة: الكرامية، المنسوبون إلى محمد بن كرام السجستاني، وهم الذين قالوا: الإيمان قول اللسان. فمن قال بلسانه فهو مؤمن! وهؤلاء يكذبهم قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١].

والصنف الثالث من المرجئة: ـ وهم أقربهم إلى أهل السُّنَّة ـ مرجئة الفقهاء. وهم الذين يقولون: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وأما الأعمال فلا تدخل في مسمى الإيمان وحقيقته. لكن الأعمال مطلوبة فما أمر الله تعالى به على سبيل الوجوب فهو واجب، وما أمر الله به على سبيل الاستحباب فهو مستحب، وما نهى الله عنه على سبيل المنع فهو محرم، وما نهى الله عنه على سبيل الكراهة فهو مكروه، والمطيع محمودٌ في الدنيا، مثابٌ في الآخرة، والعاصي مذمومٌ في الدنيا، مستحقٌّ للعقاب في الآخرة. ومرتكب الكبيرة لا يخرج عن مسمى الإيمان في الدنيا، وهو في الآخرة تحت المشيئة والإرادة.

فخلاصة قولهم أن: العمل ليس من الإيمان، لكن من ثمراته، وليس داخلًا في حدّه وتعريفه. فهم يتفقون مع أهل السُّنَّة على تعظيم العمل، وتعظيم الطاعات، وإقامة الحدود، والتغزيز وزجر السفهاء، ونحو ذلك، لكنهم لا يعدُّون العمل داخلًا في حقيقة الإيمان ومسماه. فعُدُّوا مرجئة لأنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان. لكنهم من أقرب المرجئة إلى أهل السُّنَّة، حتى قال بعض أهل العلم: إن الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة خلاف لفظي. والصحيح أنَّ منه ما هو لفظي، ومنه ما هو معنوي وتفصيل ذلك يطول.

أما الطرف المقابل فهم: الوعيدية؛ الخوارج والمعتزلة.

فإن هؤلاء يقولون: الإيمان قول وعمل، كما نقول، لكنهم يفسدون ذلك أيما إفساد حينما يقولون: إنَّ من ترك واجبًا أو فعل كبيرة زال عنه وصف الإيمان بالكلية؛ فيزيلون عن مرتكب الكبيرة وصف الإيمان بمجرد المعاصي.

وهدى الله أهل السُّنَّة إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمنٌ بإيمانه فاسق بكبيرته، وإنه في الآخرة تحت المشيئة والإرادة؛ إن شاء الله تعالى عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، بسبب حسنة التوحيد. فجمعوا بين النصوص جميعًا ولم يهدروا شيئًا منها.

ثم قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٧ ـ نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

اقتصر الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بالإيمان باليوم الأخر على هذا البيت. ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر بابٌ واسعٌ عظيم من أهم ما يميز أهل الإيمان، فلهذا لا تكاد تجد الله عَزَّوَجَلَّ يذكر الإيمان به حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر، وشواهد ذلك كثيرة، مثل ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، و﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالإيمان باليوم الآخر من أصول الإيمان. ولا يمكن أن

تخلو رسالة من عند الله تعالى من ذكره قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢].

وجملة ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر تتلخص في الإيمان بأربعة أمور، نذكرها على سبيل السرد والعد دون تفصيل:

أولها: الإيمان بما يكون في القبر، البرزخ: من فتنة الملكين، وعذاب القبر أو نعيمه.

الثانية: الإيمان بالبعث: وهو إخراج الناس من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا بهمًا. حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختونين، بهمًا ليس معهم شي.

الثالث: الإيمان بالحساب: وهو أن الله يحاسب الخلائق يوم القيامة؛ فحساب للمؤمنين وحساب للكافرين. فحسابٌ للمؤمنين الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يعذبهم وهو العرض، وحسابٌ للمؤمنين الذين أراد الله أن يعاقبهم في النار وهو المناقشة.

الرابع: الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان باقيتان لا تفنيان.

هذا جملة القول في الإيمان باليوم الآخر، وتفصيل ذلك يطول.

ثم إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ دَلَف إلى نوع من التفكر في آلاء الله وخلقه وآياته الكونية **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨ـ تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ ... مَمَالِكُهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ

٢٩ـ أَلَمْ تَرَ هذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا ... فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ

٣٠ـ تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا ... كَوَاكِبُهَا وَقَّادَةٌ تَتَرَدَّدُ

٣١ـ أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ ... حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدٌ

٣٢ـ بَلَى وَالَّذِي بِالحقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا ... وَأَوْدَعَهَا الأَسْرَارَ للَّهِ تَشْهَدُ

هذه الأبيات تتعلق بآيات الله في الآفاق، وذلك أنَّ ربنا سبحانه وبحمده قد أودع هذا الكون من الدلائل والآيات ما على مثله يؤمنُ البشر، لو أنهم رأوا بعيونٍ باصرة، وقلوبٍ واعية، فمن زالت الغشاوة عن عينيه، والوقر عن أذنيه، والأكنة عن قلبه؛ أبصر الأمور حقًّا، وصارت له قائدًا إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ أكثر الناس مصاب بالتبلد والفتور، حتى تبدو لهم الأشياء مظاهر فقط، ولو أنهم رأوا بعين البصيرة لسبّحت قلوبهم وألسنتهم، وأدركوا حقيقة العبادة والإيمان.

تأمَّل كيف يوقظ الله عَزَّوَجَلَّ الغافلين من كفار مكة وأمثالهم، فيقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦].

يا لها من أسئلة! أسئلة متعاقبة توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، كأنما هي سياط تُلهب ظهورهم ليستيقظوا ويعوا ويتفكروا.

تأمل كيف تُبنى العقيدة لبنة لبنة، من المواد الخام المبثوثة في الكون!. فعقيدتنا ـ بحمد الله ـ لا تحتاج إلى تعقيدات المتكلمين، وتفكيك ألفاظهم ومتونهم، بل تُؤخذ مما نراه ونسمعه ونعقله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] هذا المني الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة، يتنزه منه، ويستنكف من النظر إليه، ويستقذره، تأمل هذه النقلة الواسعة بين هذه النطفة التي لا يُرى فيها الحيوان المنوي إلا **بالميكروسكوبات** الدقيقة (المكبرات)، حتى يخرجه الله خلقًا سويًا؟ ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤] آخر عهد الفلّاح بالبذر حين ألقاه في شقٍّ من شقوق الأرض، ثم ولّى، وأجرى عليه الماء، وإذا بها تهتزُّ خضراء؛ أشجار وزروع وثمار! هذه النقلة الواسعة من أجراها؟ من أحياها؟ الله عز وجل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨،٦٩] تبارك الله! والله لو اجتمع من بأقطارها على أن يسوقوا عشر معشار ما تسوقه الرياح، وتسقطه من المطر، ما استطاعوا! لو ساقوا الحاويات، وأجروا الأنابيب، ما استطاعوا أن يأتوا بما يأتي الله تعالى به من هذه الأطنان المائية السماوية، التي تُنقل من أقصى المحيطات لتصب في أرض قاحلة.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٢]، هذه الطاقة المذخورة، وهذا الوقود المكتن في هذا الخشب اليابس، كيف يتحول إلى إضاءة وإلى دفء؟

كل هذه الأمور المشاهدة اليومياً والمتكررة، من مصادر بناء العقيدة في النفس لمن وفقه الله وهداه ولهذا **قال الناظم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٣ - وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ مُوقِنًا ... وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

تجد أناسًا قد بلغوا الغاية في تخصصاتهم في علم الفلك وفي علم وظائف الأعضاء وفي علم الكيمياء الحيوية، وفي علم الجيولوجيا وفي العلوم المختلفة ويذكرون أرقامًا

وإحصاءات تُبهِر الإنسان، ومع ذلك لا تُحرِّك فيهم ساكنًا؛ لأنَّ قلوبهم قد خُتم عليها، وعقولهم مغلقة، فلا ينتفعون!

ولـمَّا ذكر الآيات في الآفاق، ذكر الآيات في النفس

قال:

٣٤ـ وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ   بِهَا يُعْرَفُ اللَّهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ

كما أنَّ في الأفاق آيات ففي النفس كذلك: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

لو أنَّ الإنسان نظر في بدنه؛ كيف تخصصت هذه الخلايا لتكون مبصرة؟

وكيف تخصصت هذه الخلايا لتكون سامعة؟ وما الذي جعل اللسان يتذوق الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة؟ كيف يدرك الإنسان باللمس البرودة والحرارة والنعومة والخشونة وغير ذلك؟

كيف يؤدي كل عضو من أعضاء البدن وظيفة متخصصة؟ فللكبد وظيفة، وللقلب وظيفة، وللكلى وظيفة، ويكمل بعضها بعضًا، فتكون بمجموعها خلقًا سويًّا.

ما أحوجنا أن نتبصر! فإن هذا الأمر يبعث على الإيمان، وهو داخل في توحيد الربوبية، الذي يُسلِم إلى توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

قبل نحو سبعين سنة كتب مؤلف شيوعي لا يؤمن بالله، كتابًا سماه (الإنسان يقوم وحده) «**Man Stands Alone**» فانبرى له كاتب نصراني ـ لأن هذا من الأمور المشتركة بين الآدميين ـ وألّف كتابًا بديعًا لا يزال في الحقيقة له قيمته العلمية وفائدته الإيمانية، وسماه «الإنسان لا يقوم وحده» وتُرجم فيما بعد إلى العربية باسم «العلم يدعو إلى الإيمان».

أودعه كثيرًا من الدلائل الكونية الآفاقية، والنفسية البشرية، التي اكتشفها العلم الحديث، تؤكد وجود الخالق وربوبيته وتبطل الإلحاد.

والمقصود أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لفت الأنظار والانتباه إلى هذه الآيات العظيمات حتى ينتعش لها القلب وتفضي به إلى معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ من وراءها، عبادته وحده دون ما سواه.

قال:

٣٥ـ لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ   إِلَهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ

مراده الآيات المذكورة سابقًا في النفس والآفاق، والآيات المسطورة العظيم ومن شواهد ذلك ما ذكره الله في سورة النمل، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ

﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

٣٦ ـ فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ

من سبقت له من الله الحسنى، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينفعه بهذه الدلائل، وهذه الشواهد، فتكون سببًا لسعادته، ومن كان مصروفًا وسبقت له من الله السوأى فليس له مُسعد.

ولهذا لما مرض رجل من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدخل عليه أصحابه يعودونه، فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي. وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى بِيَدِهِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا**»[1].

---

(١) روي عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، في مسند أحمد (١٧٥٩٤)، وصححه الألباني «السلسلة الصحيحة» (٥٠).
=

هذا إلى الله ﷻ لكن المؤمن يحسن ظنه بربه ويسأله أن يكون من أهل السعادة.

٣٧ـ عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ وَتَجْتَنِبُ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

ثمرة ما تقدم من إقامة هذه الآيات والدلائل والشواهد أن تُفضي إلى تقوى الله. فالعلم النافع هو العلم الذي ينفعك في الآخرة. لا فائدة في علم لا يثمر الخشية، قال الله ﷻ عن أهل العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

يا طالبَ العلم إن لم يُفِدك علمك خشية لله؛ فاعلم أنك لست على الطريق الصحيح. فعليك بتقوى الله ﷻ وذلك بفعل أمره واجتناب نهيه، فإن هذه هي حقيقة التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب مناهيه.

كما قيل في وصف التقوى:

خَلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى[1]

(١) أبيات لابن المعتز أحد شعراء العصر العباسي.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

٣٨ ـ **وكُن مُخلِصًا لله وَاحذَرْ مِنَ الرِّيَا وَتَابِع رَسُولَ اللَّهِ إِن كُنتَ تَعبُدُ**

دعا الناظم رحمه الله قارئ منظومته إلى الإخلاص لله عز وجل. والإخلاص هو أصل العبادة ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٢]، ومعناه: ألا يشوبَ عملك شائبة، ألا يكون فيه أخلاطٌ وأوشابٌ وحظوظ لغير الله عز وجل. ولهذا قال ربنا عز وجل في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» رواه مسلم[1]، فلهذا قال المصنف: **(واحذر من الريا)**.

لأن الرياء منافٍ للإخلاص، والرياء مشتقٌّ من الرؤية وذلك أن المرائي يعمل ليرى الناس عمله، فيحمدوه عليه. فالإخلاص والرياء ضدان، والواجب على المسلم أن يسعى في تنقية قلبه.

والرياء إذا عظُم أخرج من الملة. لكن يسير الرياء هو الشرك الخفي. وقد وصفهُ النبي صلى الله عليه وسلم: فقال «**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: **يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ**

(١) صحيح مسلم (٧٦٦٦).

إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ» رواه ابن خزيمة[١].

فعوّد نفسك يا عبد الله على أن تلحظ الله تعالى في كل أمورك، فيما تفعل وما تذر، وألا يكون للمخلوقين، ولا لنفسك حظٌ من فعلك وتركك، بل اجعل ذلك كله لله ﷻ.

وهذا يحتاج إلى مجاهدة، ولهذا يؤثر عن بعض الصالحين أنه قال: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتي إياها على الإخلاص، وإنها لتتلون علي.

فالنفس لها حظوظ، ولها نزعات؛ يحب الإنسان الذكر، يحب أن يُمدح! فعلى الإنسان أن يعلم أنه لا يبقى له إلا ما أُريد به وجه الله.

قيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب أي الموطأ وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا. فأتي بذلك فنظر فيه، ثم نبذه، وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع من هذا إلا ما أريد به وجه الله[٢].

وروي أن ابن أبي ذئب صنف بالمدينة موطأً أكبر من موطأ مالك، حتى قيل لمالك: ما الفائدة في تصنيفك؟ قال: ما كان لله بقي[٣]. بقي موطأ مالك ودُرِس موطأ غيره!.

(١) صحيح ابن خزيمة (٩٣٧)، سنن البيهقي الكبري (٣٤٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١).
(٢) التمهيد لابن عبد البر (١/ ٨٦).
(٣) ذكره السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٩٣).

والرياء له أحوال ومراتب:

• إذا صاحب الرياءُ أصلَ العمل؛ بطل العمل كله؛ يعني: إذا أنشأ الإنسان العمل قاصدًا به المراءاة؛ فهو حابطٌ من أصله.

• الصورة الثانية: إذا عمل العمل يريد به وجه الله، ثم طرأ عليه الرياء؛ فلا يخلو من أمرين:

- إما أن يدافعه ويجاهده؛ فلا يضرُّه.

- أو يسترسل معه؛ فيحبطُ عمله، إذا كان العمل مجتمِعًا لا يتجزأ، أما إذا كان العمل مجزءًا فإنه يحبط ما قارنه.

فلو أن إنسانًا قام يصلي لله ﷻ، ثم في أثناء صلاته شعر بدخول داخل، فوقع في قلبه أن يطيل صلاته لكي يراه على هذا الحال، فإنْ هو استعاذ بالله ودافع هذا الخاطر، لم يضره، وصحت صلاته، وإن هو استمرأه، واستروح له؛ بطلت صلاته كلها. لأن الصلاة عبادةٌ واحدة؛ قيامها وقعودها وركوعها وسجودها، أركان يكمل بعضها بعضًا، فتبطل ببطلان أحد أركانها.

ولو أنَّ إنسانًا أراد أن يتصدق بألف ريال، فجعل يخرجها مائة مائة، فقارن الرياء إحدى الدفعات، لم تبطل جميع الدفعات بل يبطل ما قارنه الرياء؛ لأن هذه عبادة يستقل بعضها عن بعض. وعلى هذا قِسْ.

ولما أمر في الشطر الأول بالإخلاص، الذي يدل عليه الشق الأول من الشهادتين (أشهد أن لا إلٰه إلا الله)، أمر في الشطر الثاني بالمتابعة التي يدل عليها الشق الثاني (وأشهد أن محمدًا رسول الله) ومعنى ذلك: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع على لسانه، هذا هو معنى المتابعة.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح: هو الخالص الصواب، قال ربنا ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أي: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم ينفعه، وإن كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم ينفعه(١).

فلا بدَّ من اجتماع هذين الشرطين.

٣٩ـ توكّل على الرحمٰن حقًّا وثِق به ليكفيك ما يُغنيك حقًّا وترشُدُ

هذا من أعظم أسباب السعادة؛ وهو أن يُرزَق العبد صدق التوكل على الله ﷻ.

وحقيقة التوكل: اعتماد القلب على الله ﷻ في جلب المنافع ودفع المضار، مع فعل الأسباب الموصلة لذلك. قال

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٥).

ربنا ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال عن المؤمنين: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]. فالتوكل من أجلِّ العبادات القلبية.

فعوّد نفسك يا عبد الله أن لا تلتفت يمنة ويسرة. إذا ضاقت بك المذاهب، ووقعت في المآزق، فلا تقل: أين فلان؟ أين علان؟ أين الواسطة؟ ليفزع قلبك إلى الله أولًا، لتهرب إلى ربك أولًا، ثم لا بأس بعد ذلك أن تتخذ بعض الأسباب الشرعية أو الحسية التي جعلها الله أسبابًا.

فيحصل لك من جرّاء ذلك: الكفاية والرَّشَد.

٤٠ ـ تَصَبّر عن العصيان واصبر لحكمه وصَابر على الطَّاعاتِ علّك تَسعَدُ

ذكر الله الصبر في كتابه في تسعين موضعًا.

ومعنى الصبر وحقيقته اللغوية: الحبس والمنع. كما يُقال: قُتل فلانٌ صبرًا.

وأما حقيقته الشرعية فهو: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والسخط، وحبس الجوارح عن شق الجيوب، ولطم الخدود، والدعاء بدعوى الجاهلية.

حبس النفس عن الجزع، بحيث لا تكون النفس ناقمة على الله ﷻ فيما أجراه من قدر.

وحبس اللسان عن التشكي والسخط، كقول: واويلاه واثبوراه ونحو ذلك.

وحبس الجوارح عن شق الجيوب ولطم الخدود وأذية البدن بالجرح أو الانتحار.

(واصبر لحكمه) الحكم الشرعي، والحكم الكوني.

فيجب على الإنسان أن يصبر لحكم الله الشرعي فيطيعهُ فيما أمر، وينتهي عن ما نهى عنه وزجر، وفي حكمه الكوني القدري فيما يجريهُ عليه من الأقدار المؤلمة، فيرضى ويُسلِّم.

وأنواع الصبر ثلاثة، الصبر عن معصية الله، والصبر على طاعة الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فأولها: الصبر عن العصيان: ويحتاج إلى معاناة، فإن النفس تواقة للشهوات؛ لشهوة المال، وشهوة الطعام، وشهوة الفرج، وشهوة الصيت والذكر. فتَصَبّر، واقمع نفسك، روِّض نفسك، ولا تقل: صعب، مستحيل، لا والله، ما كان الله لينهاك عن شيء، إلا ويمكنك اجتنابه. ولذا قال نبيِّنا ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» متفق عليه(١).

الثاني: الصبر على طاعة الله: قد تبدو الطاعة ثقيلة في مبدأ الأمر، لكن الإنسان إذا عود نفسه على الطاعات، تلذذ بها وأحسّ بحلاوتها، فالنفس تحتاج إلى نوع من العسف والسياسة والقيادة حتى يتحول مزاجها مزاجًا إيمانيًّا. فحينما

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٨٨)، صحيح مسلم(١٣٣٧).

تكون معتادًا على أمر من الأمور ثم تريد أن تنقل عنه، تجد من نفسك ممانعة، لكن حينما تصرّ وتصبر حينئذٍ تتكيف نفسك مع هذا الوضع الجديد، وتتلذذ به.

مثال ذلك: قيام الليل، يبدو ثقيلًا أن يجافي الإنسان الفراش، كما قال الله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، لكن الموفَّقين من عباد الله عَانَوه أول الأمر، وألقوا عنهم الأعظيمة، وقاموا عن حِبِّهم وخِلِّهم، وصفُّوا أقدامهم في محاريبهم، وصوّبوا أبصارهم إلى مواضع سجودهم، واشتغلوا بمناجاة ربهم. فصارت هذه العبادات عندهم من ألذّ العبادات وأحبِّها إلى قلوبهم، حتى إنهم لا يهنئون بعيش حتى يقوموا لله رب العالمين.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فينبغي للإنسان أن يصبر على ما يجريه الله تعالى عليه، قال ربنا ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]، ويقول نبينا ﷺ: «**مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» متفق عليه[1]، فالصبر خيرُ نعمة، نسأل الله أن يمُن علينا وعليكم به.

---

(١) صحيح البخاري (١٤٦٩)، مسلم (١٠٥٣).

قال:

٤١ ـ وَكُن سَائِرًا بين المَخافَةِ وَالرَّجَا   هُمَا كَجَناحَي طَائِرٍ حِين تَقصِدُ

الخوف والرجاء من أمهات العبادات، قال ربنا ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهم يبتغون بدافع المحبة، ويرجون ويخافون.

وقد شبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الخوف والرجاء بجناحي الطائر، فكأن المحبة جسم الطائر؛ رأسه وبدنه، والخوف والرجاء جناحاه اللذان يطير بهما. فينبغي للمؤمن في عامة أحواله أن يتعادل عنده الخوف والرجاء، كما يتعادل جناحا الطائر، وإلَّا فلو ضَمُر أحد جناحيه لجنح في طيرانه.

قال ابن القيم: (القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر)[(١)].

فينبغي لك أيها المؤمن أن تضبط المعادلة، وأن تجعل قلبك بين الخوف والرجاء. وقد صوّر بعضهم هذه الثلاث بالصورة التالية، فقال: المحبة: مركبة يستقلّها السائر

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).

إلى الله ﷻ، والرجاء: يقودها إلى الأمام، والخوف: يمنعها من الحَيدة يمنة أو يَسرة.

وقال بعض السلف: (أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب. فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه)[(١)].

فعليك أن تعتني بهذه الثلاث؛ المحبة والخوف والرجاء، ولا تقل أتعلق بواحدة فقط، وأدع الباقي.

قال بعض السلف: (من عبد اللّه بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد)[(٢)]. وبذلك يتبين خطأ بعض الصوفية، وربما نُسِب إلى رابعة العدوية ـ رحمها الله ـ ولا يصح ذلك: (والله ما عبدتك طمعًا في جنتك، ولا خوفًا من نارك، ولكن محبةً لك). فهذا غير صحيح؛ لأن الذي أمرنا بالخوف والرجاء، وزرعهُ في قلوبنا، رب العالمين، الذي أمرنا بمحبته أيضًا. قال ﷺ: «**أحِبوا الله من كل قلوبكم**»[(٣)]، وأمرنا بالخوف منه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وأطمعنا في لقائه فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٦) (وهي تهذيب لسيرة ابن إسحاق)، ومن طريقه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٥)، وسنده مرسل ضعيف.

عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، فيجب أن نجمع هذه الثلاث لكي تصلُح قلوبنا.

لكن في بعض الأحوال، يحسُن أن يغلِّب الإنسان جانب الخوف، كما لو أقبلت عليه الدنيا وانفهقت له ـ يعني: أغرته ـ فينبغي أن يزيد في جرعة الخوف لكي يكبح جماح نفسه. وإذا ادلهمّت الخطوب أو حانت ساعة الاحتضار؛ فليزِد في جانب الرجاء، حتى يُحسِن الظن بمولاه، فإن الله تعالى يقول: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**» متفق عليه[1].

ثم قال:

٤٢ ـ وقَلبكَ طَهِّرهُ وَمِن كُلِّ آفةٍ وَكُن أَبدًا عَن عَيبِه تَتَفقدُ

أشرف ما فيك أيها المؤمن قلبك، فينبغي أن يكون هذا المستودع نظيفًا نقيًّا، تضع فيه أشرف ما عندك.

فلو كان عندك خِزانة ثمينة فاخرة فهل تضع فيها النفايات؟ كلا. بل تضع فيها الذهب والفضة والوثائق المهمة. كذلك قلبك، اجعله مستودعًا للعلم بالله ومحبته وخشيته ورجائه، ونقِّه من الكِبر والحسد والغل والشحناء والشرك والبدعة وغير ذلك؛ لأنه أشرف ما فيك.

القلب هو بيت الرب في العبد، كما أن الكعبة هي بيت الرب في الأرض. به يُعرَف الله سبحانه وبحمده، وبه يعبد،

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥)، صحيح مسلم (٢٦٧٥).

ولهذا قال نبينا ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»** متفق عليه[١].

قال:

٤٣ ـ وجمِّل بِنُصحِ الخَلق قَلبَك إنه لَأَعلى جَمَالٍ للقلوبِ وأجودُ

النصح: هو بذل الوُسع في نفع الآخرين. فمما يدل على نقاء القلب أن يكون الإنسان ناصحًا، يريد للخلق الخير، ويُكِنُّ لهم البرّ والمحبة والمودة، ولا يغشّهم.

قال ﷺ: **«إن لله في الأرض آنية وأحب آنية الله إليه ما رق منها وصفا. وآنية الله في الأرض قلوب العباد الصالحين»**[٢]، هكذا قلب المؤمن، قلبٌ كالزجاجة يجمعُ بين الصفاء والنعومة والصلابة.

لا يكن قلبك كالإسفنجة، ولا يكن قلبك كالحجر، ليكن قلبك كالزجاجة.

قال ابن القيم: (القلوب ثلاثة، قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة، وقلب مائع رقيق جدًّا، فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء وكلاهما ناقص، وأصح القلوب

(١) صحيح البخاري (٥٢)، صحيح مسلم (١٥٩٩).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٩٧)، مسند الشامين (٢/ ١٩)، حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٣).

القلب الرقيق الصافي الصلب. فهو يرى الحق من الباطل، بصفائه وبقلبه، ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته، وفي الأثر: القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه: أرقها وأصلبها وأصفاها وهذا القلب الزجاجي)[(١)].

قال:

٤٤ ـ وصاحِب إذا صاحبت كلَّ موَفَّقٍ يقودك للخيرات نُصحًا ويرشِدُ

ما أحوج الإنسان إلى الصحبة الصالحة. الإنسان مدنيٌّ بطبعِه، لا غنى له عن الرِّفقَة. الرفقة مطلبٌ اجتماعي لا بد منه، لكن تخيَّر أصحابك كما يتخيَّر آكلُ التمر أطايبه. إذا قُدِّم لك طبق من تمر تجد أنك تنتقي ما يطيب لك، وتدع الحَشَف والفاسد. كن كذلك مع الناس.

ولهذا قال ربنا لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

قال:

٤٥ ـ وإياك والمَرء الذي إن صَحِبتَه خَسِرت خسارًا ليس فيه ترددُ

كثير من الناس لا يبالي من يُصاحِب، يضع يده في يد كل أحد، ولا يرد يد لامس؛ يسمر، ويسهر، ويأكل، ويشرب

---

(١) الروح (ص٢٤١).

مع من هبَّ ودبّ، ومشى ودرج، ولا يعلم أن الأخلاق يسرق بعضها من بعض وأن بعض الرفقاء أخطر عليه من الأسد. قال نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ حِمَارٌ بِالنَّهَارِ، عَالِمٌ بِالدُّنْيَا جَاهِلٌ بِالآخِرَةِ**»[1]. فعليك بالصالحين الذين إذا رأيتهم ذكَّروك بالله. فهؤلاء إن وجدتهم فاستمسك بهم فإنهم مغنَم.

وقال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**» رواه البخاري[2].

٤٦ ـ خُذِ الأخلاقَ مِن عَفو مَن قَد صَحِبتَهُ   كَما يَأمُرُ الرَّحمَن فيه ويرشدُ

قد أمر الرحمٰن فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فينبغي للإنسان أن يأخذ صالح الأخلاق ومكارمها، وقد كان في دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِ الأَعْمَالِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَقِنِي سَيِّئَ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»[3].

---

(١) أخرجه البيهقي (٢٠٥٩٣)، ابن حبان (٧٢).
(٢) صحيح البخاري (٥٥٣٤)، صحيح مسلم (٢٦٢٨).
(٣) سنن الدارقطني (١١٣٩)، صحح إسناده الألباني في صفة الصلاة (ص٣٩)، مكتبة المعارف الرياض.

الإنسان له صورتان؛ صورة ظاهرة هي الخَلْق، وصورة باطنة هي الخُلُق. فالصورة الظاهرة: طولك وعرضك ولونك وقوتك وضعفك ونحو ذلك، وأما الصورة الباطنة: فهي الأخلاق. وهي هذا المزيج من الطباع الذي تكون عليه.

الأخلاق نوعان:

١ ـ **جبلي**: طُبع عليه الإنسان. ودليل ذلك أن النبي ﷺ قال لأشجّ بني عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» رواه مسلم[1]. وفي رواية قال: يا رسول الله، أنا تخلقتهما، أو جبلني الله عليهما؟ قَالَ: «**بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خَصلتين يحبهما الله ورسوله[2].

٢ ـ **كسبي**: يستمده الإنسان ممن حوله؛ إما من والديه أو من جماعته وقبيلته وبيئته وزملاء عمله وأصحابه.

فالله الله! أيها المؤمن ليكن مشروعك في الحياة المجاهدة والتهذيب. فتقتني أكرم الأخلاق وتجتنب سيئ الأخلاق فإن حُسن الخلق عند الله بمكان.

(١) صحيح مسلم (١٨).
(٢) مسند أحمد (٥٤).

قال:

٤٧ ـ تَرَحّل عن الدنيا فليست إقامةً ولـكـنـهـا زادٌ لـمـن يـتـزودُ

هذه حقيقة الدنيا. قال نبيِّنا ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» رواه البخاري[١]، الغريب يأخذ قدر كفايته، ولا يستزيد. ربما استأجر موضعًا في البلد، لكنه يدرك أنه ماضٍ في دربه، ليس من أهله. وأشدّ منه عابر السبيل، الذي لا يكاد يقِر له قرار فهو على جنح سفر كما وصف النبي ﷺ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٢].

من وفّقه الله تعالى في هذه الحياة الدنيا فعَمَرها بالإيمان والعمل الصالح وفعل الخيرات فهي نعم المركَب إلى الآخرة. وإن كانت الأخرى والعياذ بالله؛ فبئس المركب.

٤٨ ـ وكن سالكًا طُرْق الذين تقدموا إلى المنزل الباقي الذي ليس ينفدُ

دعاه الناظم رحمه الله إلى أن يقتدي بمن سلف من الصالحين الموفّقين الذين لم تخدعهم زهرة الحياة الدنيا. وأعظم هؤلاء هم أنبياء الله تعالى، ثم أصحاب الأنبياء وحواريّوهم ثم من

(١) صحيح البخاري (٦٤١٦).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٤٤)، ابن حبان في صحيحه (٦٣٥٢)، صححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٣).

سار على دربهم من السلف. ويحصل ذلك بالنظر في «سير أعلام النبلاء»، فإن الإنسان إذا قرأ في سير الصالحين ارتفعت معنوياته، وسمت نفسه، وترفّع عن الدنايا والرزايا، ونظر إلى الأفق الأعلى، ونظر إلى ما عند الله والدار الآخرة، ولم ينازع الناس في دنياهم، بل أبصر الهدف الأعلى فسار إليه.

و(المنزل الباقي) هو الجنة.

(الذي ليس ينفدُ)، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

٤٩ ـ وكن ذاكرًا للَّه في كل حالةٍ فليس لذكر اللَّه وقتٌ مقيدُ

٥٠ ـ فذِكر إلٰه العرش سرًّا ومُعلَنُا يزيل الشقا والهمَّ عنك ويطردُ

٥١ ـ ويجلب للخيرات دنيًا وآجلًا وأن يأتِك الوسواس يومًا يُشرَّدُ

هذه القطعة إلى آخر المنظومة تتعلق بالغنيمة الباردة؛ ذكر الله، لأنه من أسهل العبادات وأعظمِها أجرًا.

قال نبيِّنا ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ**» رواه الترمذي[١].

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٩)، سنن ابن ماجه (٣٧٨٠)، صححه الألباني.

حينما تقوم بعض المحلات التجارية بالإعلان عن تخفيضات، وتضع الملصقات على واجهاتها الزجاجية؛ خمسين بالمئة، سبعين بالمئة، تجد الناس يتهافتون ويتسابقون للحصول على السلع المخفضة، وربما كانت وهمية. ومع ذلك فإننا نفرط في هذا العرض النبوي المغري وهذه الغنيمة الباردة!، ما أعظم غفلتنا عنها! وهي ذكر الله ﷻ، فإن دوام ذكر الله تعالى يصِل العبد بربه، فلا يغيب قلبُه عن محراب عبادته.

وقد عدّ ابن القيم رحمه الله في «الوابل الصيّب ورافع الكلم الطيب» أكثر من مئة فائدة لذكر الله ﷻ.

لِنتأمل:

٤٩ ـ وكن ذاكرًا لله في كل حالةٍ   فليس لذكر الله وقتٌ مقيدُ

وينقسم الذكر إلى قسمين: ذكرٌ مطلق، وذكر مقيد.

فالذكر المطلق: هو أن تذكر الله على جميع أحيانك، كما قالت عائشةُ رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه» رواه مسلم[1]. وقال ربنا ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأما الذكر المقيد: فهو الأدعية المخصوصة بأحوال وهيئات ومناسبات معينة. كأذكار طرفي النهار، وأذكار النوم واليقظة، وأذكار الطعام والشراب، ودخول المسجد والخروج

(١) صحيح مسلم (٥٥٨).

منه، وإتيان أهله وهكذا. ولا يكاد شيء يستقبله المسلم في يومه إلا وفيه ذكرٌ مأثور. كلُّ ذلك لربط القلب بالله ودفع الغفلة؛ لأن الغفلة، والعياذ بالله، مودية بصاحبها يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

حينما تُبصِر هذه الجموع الهائلة من الآدميين، الذين يملؤون مدرجات الملاعب، ويملؤون الساحات والأسواق، في أركان الكرة الأرضية، تُدرك معنى هذه الكلمة، غفلة مُطبِقة! ما كأنهم خُلِقوا لعبادة الله وقد قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ما الذي أوصلهم إلى هذه البهيمية؟ إنها الغفلة!

فالله الله! اِحتَط لنفسِك أن يُستلَّ قلبُك ويُستَلَب، ويذهب في دهاليز الدنيا، ويضيع في أوديتها. لِيكن قلبك على الجادة مربوطًا بخالقه.

ثم ذكر بعض ثمرات وفوائد الذكر، قال:

٥٠ - فذِكر إلٰه العرش سرًّا ومُعلَنُا   يزيل الشقا والهمَّ عنك ويطردُ

إنَّ من ثمرات ذكر الله ﷻ: الطمأنينة والسكينة وذهاب الهم والغم، قال ربنا ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]. كلمات تجعل القلب الراجف يطئمن، لأنها كلمات

مرتبطة بمعاني. فهذا القلب إنما تتسارع دقاته أو تتباطأ بناءً على المعاني التي تقوم فيه. فحينما يستحضر الإنسان هذه المعاني المتعلقة بربه ﷻ من التوكل عليه، وحُسن الظن به، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وحمده، إلى غير ذلك تسكب في القلب هذه السكينة والطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

.... يزيل الشقا والهمَّ عنك ويطردُ

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. هذا حال المُعرِض عن ذكر الله.

ذا النون عليه السلام لما قال كلمة واحدة نجاه الله تعالى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

فاذكر الله حقًا، لا سيما تهليله وتسبيحه، يُخرجك الله من كل عمياء مظلمة.

قال:

٥١ ـ ويجلب للخيرات دنيًا وآجلًا وأن يأتِك الوَسوَاس يومًا يُشرَّدُ

يعني: أن ذكر الله ﷻ مَجلَبة للخيرات بجميع أنواعها دنيوية وأخروية.

وسمي الوَسوَاس وَسواسًا لأنه صوتٌ خفي، كصوت الحُليّ. قال الأعشى:

تسمع للحَلْيِ وَسواسًا إذا انصرَفتْ   كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[1]

والوسواس له ثلاثة مصادر: تارةً يكون من شياطين الإنس، وتارةً يكون من شياطين الجن، وتارةً يكون من النفس.

فأمَّا كونه من شياطين الإنس والجن، فقد قال الله ﷻ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ففي الإنس شياطين، وربما كانوا أشد خطرًا من شياطين الجن.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس].

وربما نشأ الوسواس من النفس ذاتها، قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] فأسند الوسواس إليها.

(١) تاج العروس، مادة: (وسس) (١٧/ ١٢)، لسان العرب، مادة: (وسس) (٦/ ٢٥٤).

قال:

٥٢ ـ **فقد أخبر المختار يومًا لصحبه بأن كثير الذكر في السبق مفرَدُ**

يشير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان رسول الله ﷺ في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال: «**سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ** [المفرِّدون يعني: المنفردون دون غيرهم، ما حولهم أحد] قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**» رواه مسلم(١).

قال:

٥٣ ـ **ووصّى معاذًا يستعينَ إلهه على ذكره والشكر بالحُسن يَعبدُ**

يشير إلى حديث معاذ أنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ وقال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ**» يا له من مدخلٍ لطيف، انظر كيف يكون التعليم المُحبّب إلى القلب، يقول له: «**يامعاذ والله إني لأحبك**» «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**» أحمد، الترمذي، ابن ماجه(٢).

لا بد من الاستعانة بالله على ذكره وشكره وحسن عباداته، فقد قيل.

---

(١) صحيح مسلم (٦٩٨٤).

(٢) المسند (٢٢١١٩)، سنن أبي داود (١٣٠١)، سنن النسائي (١٢٨٦)، صححه الألباني.

إذا لم يكن عونٌ من اللَّه للفتى فأول ما يجني عليه اجتهادُه

فيستعين بمعبوده للوصول إلى مقصوده.

٥٤ـ وأوصى لشخصٍ قد أتى لنصيحةٍ وقد كان في حمل الشرائع يجهدُ

٥٥ـ بألا يزل رطبًا لسانُك هذه تعين على كل الأمور وتُسعِدُ

يشير إلى الرجل الذي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ فدُلني على أمرٍ أتشبث به فقال له النبي ﷺ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**» رواه الترمذي، ابن ماجه[1]. وهو إنما يكون رطبًا إذا استمر يذكر الله ﷻ. ولهذا تجد الموفّقين من عباد الله في جميع أحوالهم لا تفتُرُ ألسنتهم عن قول: سبحان الله، الحمد لله، لا إلٰه إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أصبح بالنسبة لهم كالنّفَس؛ كالشهيق والزفير؛ لأنهم وطّنوا أنفسهم على هذا الأمر فصار سجيّةً لهم.

٥٦ـ وأخبر أن الذكر غرسٌ لأهله بجنات عدنٍ والمساكنُ تُمهَدُ

هذا فيه إشارة إلى إخبار النبي ﷺ بأن الجنة تربتها طيبة، وأن غراسها سبحان الله العظيم وبحمده. فعن جابر رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**» رواه الترمذي[2].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٧)، سنن ابن ماجه (٣٧٨٣) صححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٣٤٦٤)، صححه الألباني.

٥٧ ـ وأخبر أن اللَّه يذكر عبده ... ومعه على كل الأمور يُسدَّدُ

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال: «**وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**» متفق عليه(١) وهذه معيَّةٌ خاصة. فما أعظم الذكر! فإنه يثمر للذاكر معيةً خاصة، تقتضي النصر والتأييد والتسديد، لا شك أن هذا من أعظم المنافع.

٥٨ ـ وأخبر أن الذكر يبقى بجنةٍ ... وينقطع التكليف حين يُخلَّدُ

من قال: أن الجنة لا عمل فيها فقد أخطأ. الجنة فيها عمل صالح كريم. وذلك أنهم يُلهَمون الذكر، كما نُلهَمُ النَّفَس، عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ**» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «**جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**» رواه مسلم(٢). فهم يتمتعون بذكر الله والثناء عليه. فجميع الأعمال تنقطع لكن الذكر يبقى. ليس في الجنة تكاليف لكن الذكر أُنسهم، فهم يتلذذون بذكر الله تعالى، وهم يتقلبون في أعطاف النعيم.

قال:

٥٩ ـ ولو لم يكن في ذكرِهِ غيرَ أنه ... طريقٌ إلى حبِّ الإلٰه ومرشدُ

لو لم يكن في الذكر إلا هذه المزايا؛ لكفى.

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٥٦)، صحيح مسلم (٤٨٣٢).
(٢) وفي صحيح مسلم (٢٨٣٥).

أول هذه المزايا: أنه طريقٌ إلى حبِّ الإلٰه ومُرشِد؛ لأن من أحب أحدًا أكثر ذكره. فما إن يجلس مجلسًا حتى يأتي على ذكره، ومناقبه، ويُطيِّب المجلس بقصصه وحوادثه. فهذا دليل على أن الذكر يُذكِي المحبة في الفؤاد.

وأعظم محبوب هو الله ﷻ، فإذا كنت تذكر إلهك ومعبودك ما بين تسبيح وتهليل وتحميد ونحو ذلك، وقراءة قرآن، فإن هذا يزرع المحبة في القلب بخلاف الغافل عن ذكر الله ﷻ.

هذا من باب البناء أما من باب الصيانة فقال:

٦٠ـ وينهى الفتى عن غيبةٍ ونميمةٍ وعن كلِّ قولٍ للديانة مُفسدُ

٦١ـ لكان لنا حظُ عظيم ورغبةٌ بكثرةِ ذكر اللَّه، نِعم الموحَّدُ

اللسان مطبوع أن يلهج بشيء، فإن لم تُشغله بالطاعة أشغلك بالمعصية.

ولهذا كان بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ إذا سمعوا من أحدٍ قولًا لا يليق قالوا له: سبِّح! اذكر الله! لأنها تصرف عنه مقالة السوء.

ثم قال رحمه الله:

٦٢ـ ولكننا من جهلنا قلَّ ذكرنا كما قل منا للإله التعبدُ

هذا هو الواقع. هكذا قال رحمه الله ونحسبه والله حسيبه، من الصالحين المُفرِّدين، الذين سبقوا إلى الكمالات، ومع ذلك

فإن المؤمن يُزري على نفسه، ويراها دومًا مقصرة، بخلاف أهل الغرور الذين إذا عمل الإنسان منهم عملًا، مهما قلّ، أدلّ على الله بعمله.

فينبغي لك أيها المؤمن دومًا أن تشعر بتقصيرك في حق ربك، وأن الواجب عليك أضعاف ذلك، وأن عليك أن ترجو رحمته وغفرانه.

فلهذا قال:

٦٣ ـ وسل ربك التوفيق والفوز دائمًا   فما خاب عبدٌ للمهيمن يقصدُ

الله تعالى هو المُوفِّق، الله تعالى هو المُسدِّد، الله تعالى هو المُنجي، ولا تقل أن هذه أمور قد قُضيت في الأزل فما فائدة الدعاء؟ قد قضى الله في الأزل أن فلانًا يدعوه فيوفَّق ويُسَدد ويفوز، وأن فلانًا لا يدعوه فيُصرف عنه الخير. بمعنى أن الله تعالى قدَّر السبب والمُسبَّب. فلا تتوهم أن الدعاء لمجرد حصول بركة أو ثواب، وأنه لا يتغير به شيء، وليس له أثر. الدعاء مؤثِّر، فإن الله قد قضى في الأزل أن من يدعوه فإنه ينال مقصوده، ومن يُعرض عن دعائه يفوته ذلك. كما قدَّر في الأزل أن فلانًا يطلب الرزق فيغتني، وفلانًا يكِلُّ ويعجز فيظل فقيرًا. قدَّر في الأزل أن فلانًا يتداوى فيُشفى، وقدّر في الأزل أن فلانًا يدع الدواء فيفتك به المرض.

ما دمنا نفهم هذا في الأمور الدنيوية فلنفهمه أيضًا في الأمور الدينية، فهذا يحفِّزُك على أن تسأل ربك التوفيق والفوز دائمًا.

لقِيَ النبي ﷺ الحُصين بن مَعْبَد الخُزاعي وكان إذ ذاك مشركًا فقال له النبي ﷺ: «**أسلِم يا حُصين** ـ والد عُمران بن الحصين ـ «**أَمَا إِنَّك لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ**» ـ يعني: جملتين ـ ثم ذهب الحصين، ومَنَّ الله عليه بالإسلام بعد ذلك، فعاد إلى النبي ﷺ يسأله المَوْعِدة. قال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإنك قلت: إن أسلمت أُعلِّمك كلمتين، فقال ﷺ ـ وهو البار الصادق: نعم ـ «**قُلْ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي**» رواه الترمذي[١].

جملتان تكتبان بماء الذهب. «**اللَّهُمَّ ألهمني رُشدي، وأعذني من شرِّ نفسي**».

هذا من سؤال الله التوفيق.

أعلم أن في نفسك رُشدًا قد تؤتاه وقد لا تؤتاه! يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، فمن نعمة الله على العبد أن يُؤتى رُشْدَه.

نفسُك قد ألهمها الله فجورها وتقواها، والمُفلِح من

(١) سنن الترمذي (٣٤٠٥).

زكّاها واستنبط رُشْدها. والخاسر من دسّاها، وحرم نفسه رُشدها.

ما أشبه ذلك بالبلاد التي تكون أراضيها مذخورة بالمعادن النفيسة والنَّفْط، فإن هي استنبطتها غدت دولة رفاهية وصارت قوية، وإن هي أبقتها مغمورةً مطمورة بقيت مُتخلِّفة. كذلك أرض قلبِك، فاستنبط ما في قلبك من الخير، سَلِ اللهَ أن يُؤتيَك رُشدك كما آتى إبراهيم رُشدَه من قَبْل.

وفي النفس شرور، إذا تكيّفت تكيُّفًا شيطانيًّا أوردت صاحبها المهالك. فلهذا يسأل العبدُ ربَّه أن يقمع هذا الشر وأن يقيَه شر نفسه.

ثم ختم الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ منظومته هذه **بقوله:**

٦٤ ـ وصلِّ إلهي مع سلامٍ ورحمةٍ على خير من قد كان للخلق يُرشِدُ

نبيِّنا محمد ﷺ حقيق، جدير بالصلاة والسلام عليه، ليل نهار، صباح مساء. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. مِنّةٌ عظيمة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فأقل ما ينبغي أن نبذِله أن نصلي وأن نسلم على نبينا ﷺ، وندعو له بالرحمة، فإنه قد كان للخلق يُرشِدُ.

قد بذل النبي ﷺ قُصارى جهده، واستفرغ وسعه، استنطق الناس يوم حَجَة الوداع، وبين يديه مائة ألف أو يزيدون، فقال لهم: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأدَّيت، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك. قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» يرفع أصبعه إلى السماء وينكُتُها إلى الناس. رواه مسلم[١].

ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالات ربه، وأدّى ما عليه، فصلوات ربي وسلامه عليه.

وخير ما يُصلى به ويُسلَّم عليه، ما علَّمه النبي ﷺ أمته فإنهم قد سألوه وقالوا: يا رسول الله! قد علِّمنا كيف نُسلِّم عليك فكيف نُصلِّي عليك؟ فقال: «**قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» متفق عليه[٢].

قال:

٦٥ ـ وآلٍ وأصحابٍ ومن كان تابِعًا   صلاةً وتسليمًا يدومُ ويخلُدُ

أي: واجعل هذه الصلاة تشمل الآل والأصحاب. وقد تقدم الفرق بين الآل والأصحاب، وأضاف إليهم هاهنا التابعين، وهم الذين لقُوا الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنَّ

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).
(٢) صحيح البخاري (٣٣٧٠)، صحيح مسلم (٤٠٦).

ذلك يشمل من تَبِعهم إلى يوم الدين ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

الصلاة من الله على نبيِّه: هي الثناء عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية فيما رواه الإمام البخاري(١). قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وجعل هذه الصلاة دائمةً خالدة، فقال:

صلاةً وتسليمًا يدومُ ويخلُدُ

والله ﷻ إذا أراد أن يبقىٰ للعبد برُّ العمل وغُنمُه وخيره، أبقاه، وأعظم سبب لذلك هو النية الصالحة.

وقد قال نبيِّنا ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» رواه مسلم(٢).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وبهذا تمت هذه المنظومة البديعة اللطيفة السهلة التي

---

(١) قال أبو العالية: صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ. صحيح البخاري في باب قوله: «﴿ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ...﴾».

(٢) صحيح مسلم (٤٣١٠).

نَظَمَها الإمام العلّامة الشيخ أبو عبد الله، عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنسأل الله تعالى أن يجمعنا وإياكم به، وبنبينا صلوات الله وسلامه عليه والصحابة والتابعين في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والحمد لله رب العالمين.

فهرس المراجع

١ ـ **الأدب المفرد**: المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٢ ـ **الأسماء والصفات**: المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، المحقق: عبد الله بن محمد الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى.

٣ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٤ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٥ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السُّنَّة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.

٦ ـ **الإيمان**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٧ ـ **بدائع الفوائد**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٨ ـ **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٢، تحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم.

٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١٠ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار النشر: دار الكتاب العربي، سنة النشر: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، الطبعة الأولى.

١١ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**: المؤلف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة.

١٢ ـ **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**: المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٣ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: المؤلف: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٤ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ.

١٥ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**: المؤلف: محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، دار عالم الكتب.

١٦ ـ **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**: المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الناشر: دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٧ ـ **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**: المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨ ـ **الجامع الصحيح سنن الترمذي**: المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

١٩ ـ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**: المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٠ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**: المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢١ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٢ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: المؤلف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر، مصر، سنة النشر: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٣ ـ **درء تعارض العقل والنقل**: المؤلف: تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمٰن، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٤ ـ **الرد على الجهمية**: المؤلف: عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد أبو سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٢٥ ـ **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسُّنَّة**: المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٦ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٧ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**: المؤلف: أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٨ ـ **السلسلة الصحيحة**: المؤلف: أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.

٢٩ ـ **سنن ابن ماجه**: المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٣٠ ـ **سنن أبي داود**: المؤلف: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، الناشر: دار الفكر، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٣١ ـ **سنن البيهقي الكبرى**: المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، الناشر: مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٣٢ ـ **سنن الدارقطني**: المؤلف: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

٣٣ ـ **سنن النسائي الكبرى**: المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمٰن النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٤ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة**: المؤلف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣٥ ـ **شرح السُّنَّة**: المؤلف: محيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٦ ـ **شعب الإيمان**: المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٧ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر**: المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله تحقيق: أحمد بن صالح الصمعاني، علي بن محمد العجلان، الناشر: دار الصميعي، ١٤٢٩هـ.

٣٨ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٣٩ ـ **صحيح ابن خزيمة**: المؤلف: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٤٠ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**: المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤١ ـ **صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها**: المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

٤٢ ـ **الصلاة وأحكام تاركها**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة.

٤٣ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٤ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٤٥ ـ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤٦ ـ **العلو للعلي الغفار**: المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٤٧ ـ **الفتوى الحموية الكبرى**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، الناشر: دار الصميعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٤٨ ـ **القاموس المحيط**: المؤلف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٤٩ ـ **كلمة الإخلاص وتحقيق معناها**: المؤلف: ابن رجب الحنبلي، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ.

٥٠ ـ **لسان العرب**: المؤلف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٥١ ـ **المجتبى من السنن**: المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمٰن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٢ ـ **مجموع الفتاوى**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م.

٥٣ ـ **المجموع شرح المهذب**: المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر، سنة النشر: ١٩٩٧م، بيروت.

٥٤ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٥٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**: المؤلف: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مع الكتاب: تعليقات الذهبي في التلخيص، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٥٦ ـ **مسند أبي يعلى**: المؤلف: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٥٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٥٨ ـ **مسند الشاميين**: المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.

٥٩ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**: المؤلف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.

٦٠ ـ **مصنف عبد الرزاق**: المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي.

٦١ ـ **المصنف في الأحاديث والآثار (لابن أبي شيبة)**: المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٦٢ ـ **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**: المؤلف: محيي السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٣ ـ **مفتاح دار السعادة**: المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٤ ـ **النبوات**: المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات